

أسامة أنور عكاشة

جنة مجنون

روايات الهلال

سلسلة شهرية لنشر القصص العربى والعالمى تصدر عن مؤسسة دارالهلال

رئيس مجلس الإدارة

عبد القادر شهيب

رئيس التحرير

مجدى الدقاق

المستشار الفنى

محمد أبو طالب

مدير التحرير

محمد رضوان

سكرتير التحرير

محمد عبد العظيم

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٦٠ جنيها مصريا داخل (ج.م.ع) تسدد مقدما نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٥ دولارا - أمريكا وأوروبا وآسيا وأفريقيا ٥٠ دولارا - باقى دول العالم ٦٠ دولارا.

القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دارالهلال.

بريد الاشتراكات

Email : subscription_dep@yahoo.com



الإدارة

القاهرة:
١٦ شارع محمد عزالعرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط).
المكاتبات:
ص.ب: ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا: المصور - القاهرة ج.م.ع.
تلكس:
Telex 92703 hilal u n
فاكس:
FAX 3625469

الإصدار الأول - يناير ١٩٤٩

عدد ٧٠٠ - أبريل (نيسان) ٢٠٠٧م - ربيع الأول ١٤٢٨هـ - برموده ١٧٢٣ق

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٠٠٠ فلس - الكويت ١٠٠٠ فلس - السعودية ١٢ ريالا - البحرين ١.٢ دينار - قطر ١٢ ريالا - الامارات ١٢ درهما - سلطنة عمان ١.٢ ريال - اليمن ٤٠٠ ريال - المغرب ٢٠ درهما - فلسطين ٣ دولار - سويسرا ٤ فرنكات لندن ٢ جك.

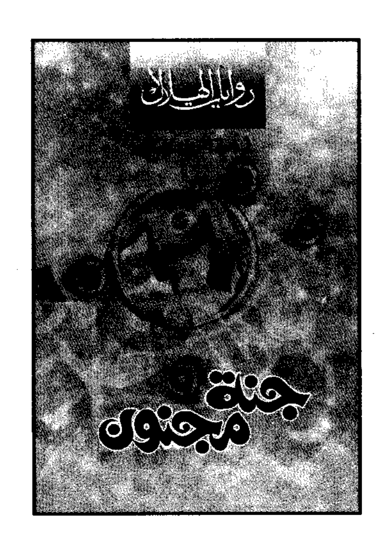
البريد الإلكترونى:

darhilal @ idsc.gov.eg

جثة مجنون

أسامة أنور عكاشة

دار الهلال



الخطوط للفنان:
محمد العيسوى
الغلاف للفنانة:
سهام وهدان

- ١ -

حلم الفجر

تعلق صور الطفولة الباكرة فى الذاكرة لا تبرح، وكم حدثت أبى وبعض الأهل عن صور ماثلة لأحداث شهدتها فى عمق زمنى الأول فأنكروها غير مصدقين قدرة ذاكرتى على التقاط ما كانت سنى وقت حدوثها لا تتعدى الثانية، وكانوا يرجحون أننى سمعت أخبارا تروى فتخيلتها وعبثا أحاول إقناعهم بأن العلم يثبت حقيقة أن الذاكرة قد تفلت الحديث القريب ولكنها تحتفظ بالبعيد.

لهذا أحسست بالصدمة حين تيقظت ذاكرتى فجأة لأكتشف أننى نسيت عاطف! والأدهى أننى لم أكن لأتذكره لولا أن جاءتنى تلك الرسالة القصيرة مشبوكة فى سلة زهور جميلة.. «عاطف درويش.. تبة الرماية فى الحرس الوطنى هل تذكر؟ هاتفى رقم (٠٠٠٠٠٠).

- ياه .. عاطف درويش!

تدفقت كل الصور فى لحظة وكأنها كانت محتجزة خلف سد من سدود الرى ثم أزيل فاندفعت تيارا لا يتوقف!

كيف تسنى لى أن أنسى؟

لم يحدث بالطبع ولكنها إحدى خدع وألاعيب العقل الباطن حين يسارع بإخفاء بعض الصور ويشغلك عنها مراكما غيرها فوقها ليزداد

مخزونه ويصبح عالما موازيا فى الظل يساومك به.. ويقلقك أحيانا ويمرضك غالبا.. وإلا فكيف يمكن للإنسان أن ينسى الطفل الأول؟ ذلك الذى عذبه وأرقه وأشقاه؟ طفل البكور الذى بدأ خطوات النمو حين عاجلته صدمة الحرمان فمزقت ستائره الموشاة برسوم الطواويس وحوريات البحر لتفجؤه مخالب الحدادى والغربان.

وكلانا فى ذلك الزمن البعيد كنا ذلك الطفل الأول حامل الصدمة.. فقد فوجىء كلانا برحيل أمه وهو على أعتاب السنة السابعة! وتحولنا نفس التحول فاقتربنا أحدنا من الآخر.. انصرفت وانصرف بدوره عن ملاعب الطفولة ورفاق المدرسة وشقاوة الشارع توحد كل منا وانعزل وأصبح فى نظر الآخرين طفلا «براويا» لا يأنس للأغراب ولا يستسلم لملاطفات الأقارب.

فى بيت أسرتى وكان «دارة» واسعة تزخر بالأهل والأضياف على مدار اليوم نهارا وليلا كانت هناك حجرة «مخزن» لا يقربها أحد إلا إذا كانت هناك قطعة أثاث أو غرض من الأغراض يراد أبعاده ونسيانه دون الاضطرار لإلقائه فى الخارج.. وكانت هذه الحجرة هى عالمى ومملكتى. وكنزى وجدت بها الكثير من مقتنيات أمى التى أزيحت عن الأنظار حتى لا تثير الذكرى أو تجدد الأحزان.. ووجدت ألعابا ودمى من طفولة أحد الكبار الذين تركوا زمن اللعب.. ثم وجدت تلالاً من الكتب والمجلات من كل الألوان والمستويات.. وكان كل ما وجدته أدواتى التى كونت بها عالمى الصغير الخاص.. وقد فعل عاطف الشىء نفسه.. ثم شاركنى عالمى بعد أن أضاف إليه ما تيسر له من أدوات، إذ كان الأمر مختلفا فى منزله ذى الحجم الصغير وهو فى واقع الأمر منزل جدته لأمه الراحلة.. والجدة سيدة رقيقة الحال لا يحتوى مسكنها على غير غرفتين ضيقتين تشارك الجدة مع خالة عاطف المشلولة فى

إحداهما وفى الأخرى تشارك عاطف مع خاله العاطل الجوال الذى فسد أمره منذ صباه وعاش على هامش حياة الآخرين.. كان رجلا جذابا يتمتع بكثير من الحيوية ودفء المشاعر ولكنه كان نموذجا للإنسان الذى أدمن الفشل وأسلم نفسه لحياة مرتبكة.

كانت أسرة تعسة! ضاعف من تعاستها أن تعود «أم عاطف» إلى أهلها مطلقة طعينة القلب بعد أن تزوج الأب وطردها وكانت اللطمة أقوى من أن تحتملها المسكينة فرحلت بعد شهور قليلة تاركة عاطف ابن السابعة لجدته التى كانت رغم رقة حالها وقصر ذات يدها امرأة عالية النفس موفورة الكرامة، فلم ترض أن تتوسل للسيد عبد الفتاح درويش والد عاطف لكى يساعدها أو يساعد ابنه.. وراق للأب صمتها، فصمت بدوره ولم يحاول حتى أن يرى ابنه، وكف عاطف عن محاولة الاتصال به بعد فترة إذ أيقن ببديهة الطفل الصافية أن الأب لا يريده!

وهكذا كان منطقيا أن يقترب أحدنا من الآخر حتى تمكنت بعد محاولات يسيرة من إقناع أبى بالسماح لعاطف بأن يزورنى لنذاكر دروسنا سويا.. ولعله لم يلق بالا للطفلين فى بداية المرحلة الابتدائية أن يستذكرا أو يلعبا فلا بأس فى النهاية من أن يجد ابنه المنعزل «البراوى» رفيقا ينهى توحده وانقطاعه وكانت حجرة المخزن هى المأوى!

أذكر الآن كيف كنا نمضى الساعات الطوال وحدنا وقد نسى الجميع أمرنا حتى يضطرنى الجوع إلى الخروج والذهاب إلى المطبخ وساعتها فقط تنتبه خادمة الأسرة وتغمغم آسفة، والله يابنى نسيناكم لا حول ولا قوة إلا بالله.

وأذكر كيف طالت بنا ساعات القراءة فى رواية.. «بارديليان وفوستا» حتى غلبنا النوم وبتنا ليلتنا فى نفس المكان لم يتفقدنا أحد

ولم يحس مخلوق بغيابنا حتى جاءت جدة عاطف فى الصباح ملهوفة باكية تتوسل إلى أهل البيت أن يسألونى عن حفيدها الذى لم يعد إلى المنزل! ساعتها فقط تذكر أهل الدار أننى بدورى لم أظهر منذ غروب اليوم السابق فهجموا على حجرة المخزن ليجدونا نائمين وقد أمسك كل منا بالرواية التى غلبه النوم وهو يقرؤها! وظلت نادرة تروى فى محيط الأسرة على مدى العامين التاليين حتى أدرك أبى أن لقاءاتنا فى حجرة المخزن كانت لقراءة الروايات ولم تكن للمذاكرة فأصدر قراره الصارم بأن أستذكر وحدى.. وأغلقت حجرة المخزن!

لكن عشق القراءة وإدمان لعبة الخيال كانا قد تمكنا منا وملكا علينا أمرينا.. فقد خلقتا لنا عالما موازيا تتكون مفرداته من الأحلام ومن تمنيات لا يحققها الواقع.. كنا بعد أن نقرأ نغلق الكتب ونبدأ «لعبة التقمص فيتفق كل منا على شخصية من أبطال خياله يحملها كل تمنياته وأحلام يقظته ليؤديها سردا وبالحركة والإشارة، ويتبادل الأدوار مع صاحبه.. كان نوعا من التشخيص والارتجال الذى يعوض الكثير من احباطات الحرمان ومعاناة الشعور بالنقص! وبعد أن أغلق المسرح فى دار العائلة كان لابد أن نجد المسرح البديل.. وجربنا أن يكون على سطح منزلى أو منزله.. لكن نوافذ الجيران كان تخدش خصوصية اللعبة ثم حاولنا فى حديقة «البلدية» لكن تدخلات الآخرين وسخرية الأطفال الذين نرفض مشاركتهم أفشلت المحاولة.. حتى اهتدينا أخيرا إلى تبة ضرب النار فى ساحة «الحرس الوطنى»!

التبة عبارة عن حائط عال من الطوب الأحمر تتراكم أمامه تلة من الطمى الجاف تشبه المصطبة.. كان يستخدم للتمرين على الرماية فى معسكر كبير، كان فى الأصل ثكنة للجيش «المرابط» ثم أخلاه لتحتله بعض فصائل الحرس الوطنى الذى تشكل فى الخمسينيات بعد يوليو

وكان هدفه تكوين احتياطى عسكرى مدنى يتولى الدفاع عن الداخل فى مواجهة الخطر.. وقد جمع الشباب والطلبة خلال حرب السويس وتولى تدريبهم على السلاح الذى وزع أيامها فى الشارع توقيا واستعدادا للمقاومة إذا انتشرت قوات العدوان الثلاثى من بورسعيد إلى الدلتا! ثم انتهت الحرب.. وحلت فصائل الحرس الوطنى بعد أن اصطدمت بميليشيات أخرى كونتها قوى أخرى فى السلطة وسميت منظمة الشباب فتم حل الاثنين!

خلت ساحة المعسكر ولم يعد بها «صريخ» ابن يومين.. فكانت مسرحنا الخاص الذى نخرج إليه وأنا وعاطف بعد المدرسة لنمارس عليه لعبتنا الأثيرة.. وجاء مساء..

بحثت عن عاطف بعد اليوم الدراسى فلم أجده فرجحت أن يكون قد سبقنى إلى التبة، وكان أى منا يفعلها أحيانا إذا خرج مبكرا بسبب حصة إضافية خالية لا يجدون لها مدرسا فيصرفون التلاميذ، ولكنى لم أجد عاطف هناك.. كانت المرة الأولى.. فتملكتنى الوساوس وناوشنى القلق.. ومع ذلك ظللت أنتظره حتى هبطت العتمة وحل المساء فهرعت إلى منزل جدته بخالجنى الظن بأن عارضا صحيا قد ألم به.. ولم أكد أصل حتى داهمتنى الصدمة! كان الخال جالسا على عتبة المنزل الحجرية منكس الرأس واجما.. بينما أقعى عاطف إلى جواره يبكى فى حرقة بلا صوت.. وكان هناك بعض الجيران يتحركون هنا وهناك. وصوت قرآن مرتل على شريط مسجل يأتى من داخل المنزل.. لقد رحلت الجدة فجر اليوم.

كنت أعلم قدر حب عاطف لجدته وتعلقه بها.. وكيف تحولت إليها كل مشاعر الفقد والحرمان بعد رحيل الأم.. وكيف كانت بدورها تغدق عليه من حنان فياض صارحته مرارا بأننى أحسده عليه.. وها هو يئن تحت وطأة الفقد للمرة الثانية.. هذا الفتى النحيل.. ذو الوجه البيضاوى

الشاحب الذى تحتله عينان واسعتان تتلألأ فى سوادهما عشرات النجوم.. والذى قال عنه الأستاذ عدلى مدرس الرسم عاطف لا وجه له.. بل عينان فقط!

فى هاتين العينين كان المعنى مسطورا قبل أن ينطق به اللسان.

- كل الأشياء تغيرت يا صديقى.. ولا أظننا بعد سنذهب إلى التبة!

.. ولم تمض غير أيام. بعدها قيل لنا فى المدرسة إن عاطف قد حولت أوراقه إلى مدرسة أخرى فى بورسعيد!

بورسعيد؟ ومن له فى بورسعيد؟ لم أسمعه مرة واحدة يتحدث عن أهل أو أقارب له هناك.. ولابد أن أعرف تفاصيل الأمر.. ذهبت إلى منزل الجدة فقال لى الجيران إن الجميع قد رحلوا.. وقد أخبرهم الخال أن عاطف سيذهب إلى أبيه الذى وافق أخيرا على إعالته.. وقال لهم إن الرجل يزاول تجارة رائجة فى بورسعيد!

انقطع ذلك الخيط الحريرى الذى جمع بين اليتيمين وانفصمت عرى صداقة صنعتها الأحزان المتساندة فى بكور الفجر.. فسقطت حلقاتها فى بئر الذاكرة حتى دفنت فى القاع.

لكنها تطفو على السطح بعد ثلاثين عاما.. ومعها باقة زهر وكلمات عن الذكراة وأرقام هاتف.. وتخرج ملامح عاطف من غلالات السنين الغائمة.. ترى ماذا يريد؟

- ٢ -

وادى القمر الأخضر

أتانى صوته عبر الهاتف فلم أتعرف عليه، كان صوت الرجل مختلفا تماما عن صوت الطفل الذى احتفظت ذاكرتى السمعية بنبراته طوال الثلاثين عاما المنقضية، فكان لابد أن أصدقه وهو يؤكد:

- نعم! أنا عاطف درويش!

- وأنا (.......).

انفجرت نبراته بفرحة طفولية كادت تعيده إلى صوت الطفل القديم... وراح يعبر فى تدفق تلقائى غير منمق عن امتنانه البالغ لاهتمامى بالرد على بطاقته ويرجونى أن أعتبر باقة الزهور التى أرسلها معها اعتذارا متواضعا عن تقاعسه طوال السنين الماضية، (دارت بى الدنيا يا صديقى دورات تلو دورات وصارعتنى الأقدار وطرحتنى أرضا لكنى استطعت أن أغالبها وأستوى على قدمى مرة أخرى.. فلم تتح لى فرصة الاتصال بكم جميعا إلا بعد حين..

- بنا جميعا تقصد من بضمير الجمع؟

- أنت وباقى الرفاق الذين عرفتهم بعد رحيلى عن بلدك.. والذين تفرقت بهم السبل بعيدا عنى عبر تقلبات السنين.. أعتذر لكم جميعا وأسألكم الصفح.

- لا تحمل نفسك وحدك وزر الانقطاع فبدورنا تقاعسنا وانشغلنا وتقلبت بنا السنون.

- إذن فلنطو الصفحة ونفتح غيرها!

- لك هذا.. وسأحرص من جانبى على مداومة الاتصال بك!

وعلا صوته فى سماعة التليفون هادرا محتجا.. (بعد كل ما مر من سنين أكملت عقودا ثلاثة تتواصل بالاتصالات الهاتفية؟ إذن فالمسألة لا تستحق، الأفضل أن نظل كما نحن.. كل غارق فى غياهب لجته مشغول بنفسه محصور فى دائرته ولنسحب اعتذاراتنا وننسى الأمر برمته).

- مهلا ولا تطلق العنان لغضبك وأذكر لى بالتحديد ماذا تريد؟

- اسمع .. أنت لا تعرف عنوانى فى صباح الغد سأرسل لك سيارتى بسائقها ليصحبك إلىّ.

- وهل تعرف أنت عنوانى؟

- وكيف إذن أرسلت لك باقة الزهور؟

- حسنا ولكن دعنى أفكر فى الأمر فظروفى فى الغد قد لا..

- لا نقاش ولا جدال.. فى العاشرة تماما ستقف السيارة أمام بيتك ولدى السائق أوامر لا يستطيع عصيانها بأن يبقى كما هو حتى تخرج إليه ولو طال انتظاره ساعات! بل أياما.

وحين أغلق الهاتف دون أن ينتظر ردى أو يودعنى، أحسست باضطراب حقيقى.. فقد كان صوته يرتجف بلهجة مصرة.. آمرة.. تقترب من درجة العصبية.. وأصابنى هذا بقدر من التوتر اعتل له مزاجى... وبعد تفكير يسير قررت أن أطلبه مرة أخرى لأعنفه واعتذر له نهائيا عن قبول دعوته! وإذا بى أفاجأ بأنه أغلق هاتفه المحمول وعبثا دأبت على أن أكرر المحاولة.. فقد قرر فيما يبدو أن يسد على كل منافذ الفرار.. فظل هاتفه مغلقا طوال الليلة.. وأحنقنى هذا بدرجة أكبر

فاتخذت قرارا جديدا بأن أتجاهل دعوته تماما ولا ألقى بالا لسيارته وارتفعت درجة حرارة رأسى فذهبت إلى حد النية بأن أطرد السائق شر طردة!

وفى صباح اليوم التالى أيقظنى نفير سيارة يطلق رنات استدعاء ونظرت إلى ساعة يدى فوجدتها تشير إلى العاشرة تماما! ويحى لقد فعلها! وهرعت إلى النافذة أطل منها على الشارع لأرى سيارة فارهة سوداء تقف أمام باب البيت. واستبعدت تماما أن تكون سيارته فهى واحدة من تلك المعروفة بفداحة ثمنها والتى نراها فى أفلام السينما الأمريكية.. تشبه بناية تسير على عجلات ولها ثلاثة أبواب فى كل جانب ولم أتصور مطلقا أن يحوز عاطف مثلها، فقفزت إلى فراشى مرة أخرى لأكمل نومى.. ولكن..

بعد ربع ساعة بالثانية انطلق النفير مرة أخرى بنفس رنتى الاستدعاء.. وصرفت ذهنى متدثرا بالغطاء.. وحين سمعت للمرة الثالثة راجعت الساعة لأكتشف أن ربع ساعة أخرى قد مرت! إذن فالسائق يعمل وفقا لنظام قد حدد له كل ربع ساعة عليه أن يطلق النفير!

وبعد المرة الخامسة أيقنت أنها لابد وأن تكون السيارة التى تنتظرنى!

استدعيت حارس العمارة وسألته عن تلك السيارة التى تطلق نفيرها كل ربع ساعة فابتسم فى دهشة وأجابنى:

- سيادتك لا تعرف؟ لقد أخبرنى السائق بأنه ينتظرك وأن اتفاقا بينك وبين سيده يقضى بأن يستدعيك كل ربع ساعة حتى تستعد وتستقل السيارة!

وانتابنى على الفور إحساسان متناقضان أولهما استظراف ما حدث من عاطف وإصراره على اللعب بنفس الطريقة التى كنا نلعب بها

صغارا (كان فى الفترة التى منعنى فيها أبى من مصاحبته يأتى إلى شارعنا ويطلق صفيره تحت شرفة حجرتى مرتين كل بضع دقائق.. حتى أستطيع الإفلات واللحاق أو أن أبرز إليه من الشرفة وأخبره أن محاولاتى قد فشلت).

أما الإحساس الآخر فكان الغيظ الذى سيطر على بسبب ما فرضه على وإصراره على أن ينفذ رغبته فى اقتيادى إليه.. وإذ تغلب إحساس الغيظ طلبت من الحارس أن يبلغ السائق بأنى لن أسافر ولن أركب السيارة وأن عليه أن يعود بها لصاحبها ويبلغه بقرارى!

ولقد هبط الحارس إلى الشارع ثم فوجئت به يصعد مرة أخرى وقد امتلأت عيناه بدهشة عارمة:

- سيدى.. السائق يعتذر لسعادتك ويبلغك بأنه عبد مأمور والتعليمات التى تلقاها تلزمه بأن يظل فى انتظارك حتى لو مضت ساعات وأيام. وأن الشىء الوحيد الذى بإمكانه أن ينفذه هو أن يمتنع عن إطلاق النفير.

وأسقط فى يدى.. ولوهلة لم أدر ماذا أفعل! ذهبت إلى النافذة وأطللت مرة أخرى على السيارة كانت رابضة فى مكانها وبجوارها وقف السائق يتبادل الحديث مع الحارس.. ثم اختفيا معا أسفل الشرفة فرجحت أن يكون الحارس قد دعاه ليقدم له الشاى! جلست أفكر وقد تشتت ذهنى! ما الذى يدفع عاطف بكل هذا الاصرار على استقدامى؟ وما الذى يدفعنى بالمقابل إلى العناد والرفض؟ حقيقة الأمر أن ظروفى تسمح لى بالذهاب إليه حيثما كان فلماذا لا أفعل؟ ولماذا أتمسك بالشكليات والمظاهر إلى هذه الدرجة؟ لماذا لا أستجيب لفضولى المتراكم منذ أمس وأسعى لمعرفة إجابات الأسئلة التى تلاحقت على رأسى طوال الليل؟ لا شك أن لدى عاطف مبررا ما يدفعه للإصرار على دعوتى.. أما أنا فأى مبرر لدى؟

حسم الأمر وبعد دقائق قليلة كنت أجلس في صالون السيارة الفارهة وأحاول تجاذب الحديث مع السائق ولكنه فيما يبدو كان ينفذ تعليمات تحذره من التبسط معى أو الاجابة على أى اسئلة أوجهها إليه.. فكانت كل إجاباته مقتضبة ومبتسرة ولا تقول شيئا! وقد أدهشنى أن يتجه الرجل إلى طريق القاهرة.. الاسكندرية فقد كنت أتصور أن عاطف يقيم فى بورسعيد وفقا لمعلوماتى القديمة عن رحيله بعد وفاة جدته إلى حيث يملك أبيه تجارة رائجة هناك.

- ألا يقيم الأستاذ عاطف فى بورسعيد؟

- كلا ياسيدى!

وصمت فاضطرنى إلى التساؤل مرة أخرى. فإلى أين تأخذنى؟

وبنفس الاقتضاب كانت إجابته: وادى القمر يا سيدى!

وعبثا حاولت أن أنتزع منه أى معلومات عن ذلك المكان المسمى «بوادى القمر» كل ما يعرفه أنه على الطريق المؤدى إلى مزارع الشركة النموذجية! ولم أجد بدا من أن ألوذ بالصمت وقد أسلمنى مع رتابة الطريق وحفيف التكييف داخل السيارة إلى نعاس «التعسيلة» وهو نوع أعشقه وأرى أن اسمه مشتق من العسل.. بسبب حلاوة تلك الدقائق التى يختلسها الجسم من اليقظة ليلقى بنفسه فى أحضان غفوة تتأرجح بين الاستغراق فى النوم وحدود هامش الوعى، وانتبهت عند هزة اعتلت بها السيارة أحد «المطبات الصناعية» لأجد أنها قد دخلت فى طريق جانبى تحيط به من الجانبين أشجار «الجازورينا» وبعد أمتار قليلة كان هناك سهم خشبى كتبت عليه عبارة «مزارع الشركة النموذجية» » وادى القمر الأخضر.. هناك إذن صفة مضافة إلى القمر.. وهى أنه أخضر! ووجدت نفسى أتساءل ما هى حكايتك يا عاطف يابن درويش؟

بوابة مثل أقواس النصر يعلوها نفس الاسم مضافا إليه اسم

صاحبنا: عاطف درويش!! ووسط حقول مزهرة من الجانبين تحيطها أجمات دن أشجار كثيفة تخفى ما يليها من رمال أكملت السيارة طريقها إلى بيت صغير.. وقف أمامه ذلك الرجل الذى عرفته طفلا باسم «عاطف درويش» ولعبت معه فى حجرة المخزن وعلى تبة إطلاق النار فى الجيش المرابط تلك الألعاب التى امتطينا فيها صهوة أحلام البكور .. وحين فتح لى ذراعيه توقفت قليلا لأتأمله وأذهلنى أن أرى نفس وجه الطفل هو هو.. لم تعله خشونة شارب أو لحية اخضرت بعد حلاقتها أو تقطيبة فى الجبين رسمتها دورات السنين التى حدثنى عنها فى الهاتف.. وكانت هناك تلك الابتسامة القديمة تبرق فى العينين بدهشة طفولية تتوق إلى معرفة المجهول وتنزع إلى اكتشاف الخوافى حقا صار الجسم رجلا مكتملا فى الطول والشيب الذى وخط الفودين والصلع الزاحف فى مقدمة الرأس.. ولكن الطفل مازال رابضا هناك وحين استسلمت لعناقه أحسست اننى قد ارتددت طفلا سعيدا عاد من رحلة تيه أضله فيها زحام الليلة الكبيرة فى مولد السيد البدوى أو سيدى إبراهيم الدسوقى.

قفزنا فى دقائق عبر برزخ الزمن الخادع.. وتوغلنا فى حنايا الحقيقة الكائنة فى جوف اللحظة ووجدتنى أسأله:

– أولا وقبل كل شىء.. ما هى حكاية وادى القمر الأخضر؟ أهو اسم قديم لهذه الأرض أم أنه من اختيارك؟

ابتسم بفرحة طفل يخبىء لعبته الجديدة خلف ظهره.. ثم قال:

– هل تذكر رواية الأفق الضائع لجيمس هيلتون..

– أجل فقد كانت مقررة علينا باللغة الانجليزية بالمرحلة الثانوية.

– إذن فأنت تذكر أيضا وادى القمر الأزرق؟

– أهناك صلة بين الأزرق والأخضر؟

– بعد الغداء.. أحكى لك.. وعليك أن تكتشف الصلة.

- ٣ -

رجل خلف الأسوار

استغرقتنا تفاصيل غداء فاخر.. قدمه لنا رجال وتناوب على خدمتنا أخرون.. وكلهم يرتدون ملابس السقاة فى مطاعم الخمس نجوم.. وكان الطبق الرئيسى شواء لحم لم يسبق لى تذوقه.. وراقنى طعمه حتى سألت مضيفى عنه فابتسم بسعادة ومكر طفل يفضى بأسرار لعبته:

- هو لحم غزال من إنتاج المزرعة.

- ولكنى حسبته من إعداد مطعم شهير.. وكما أرى، فقد استأجرت سقاته أيضاً ليقدموا الطعام.

- عن أى سقاة تتحدث؟.. هؤلاء رجال مطبخى ومزرعتى.. وهم موظفون لدى..

«كل هؤلاء».. سؤال لم أسأله لأننى خشيت أن أسمع ردا يراكم مشاعر الدهشة وقد ينحو بها نحو مسارب القلق والخوف!.. لقد ترك عاطف درويش مدينتنا الصغيرة بعد رحيل جدته طفلا رقيق الحال ليلتحق بأب لم يعرفه ولا يعرف الآخرون عنه شيئاً.. سوى أنه يعمل فى تجارة ما بمدينة بورسعيد وما أراه الآن يحتاج إلى شروح وتفسيرات وحكايات يمكنها أن تبدد ما اكتنف الأمر من غموض..

قال عاطف معلقا على أكواب الشاى الغريبة المصنوعة من الخزف

الصينى باهظ القيمة والثمن.

- وهذا شاى لا أظنك قد تذوقته من قبل.. ولا أظن أحداً فى مصر كلها قد فعل.. فهو من مزارع شاى نادرة عند سفوح الهيمالايا فى الجانبين الهندى والصينى.. تنبت نوعا من أوراق الشاى الأخضر الذى يتناوله رهبان «اللاما» فى نيبال وسيكيم والتبت ويعد من أسرار «المعبد» lamazary واستطعت بصعوبة أن أستعيد صاحبى من رحلته الشاطحة فى قمة ايفرست وسقف العالم فى «لهاسا» حيث يعيش البانشن لاما بعد هروب الدالاى لاما إلى خارج التبت احتجاجا على اجتياح الصينيين لبلاده.

- ماذا حدث يا عاطف بعد أن التقيت بأبيك فى بورسعيد؟

ولاشك أن صاحبى قد أحس بأن ساعة الحكى الرئيسية قد دقت!.. فقد عبرت سحابة شتوية أفقه المشمس فغامت عيناه بنظرة شاردة تطارد تاريخا مازال حيا كجرح يأبى أن يندمل.

وجرح الطفل بدوره كان مازال ينزف وذكرى الجدة التى لم يعرف غيرها أما ولا أبا تسربل أعماقه بلون حداد يائس.. فساء لقاؤه الأول بالأب الذى شعر بنفور الطفل فبادله على الفور نفس المشاعر وأغلظ معاملته متهما إياه بأنه حط عليه كغراب البين لينحسه ويبدد حظه.. وكان هذا ضد كل نظريات علم النفس والطبيعة البشرية لأن الفحوص الطبية أثبتت أن «درويش» كان من ذوى خصوبة المرة الواحدة.. فبعد أن أنجب «عاطف» أصيب بمرض ما قضى على خصوبته نهائيا وحرمه من أن يكون أبا لأبناء آخرين.. مما دفعه للسقوط فى لجة شكوك سوداوية طالت الأم وقضت على حياتها فى النهاية وحتى عاد إليه ابنه بعد وفاة الجدة لم تكن شكوكه فى انتسابه إليه قد تبددت وفور وصوله سحبه إلى الأطباء والمعامل والتحليلات التى أقنعته أخيرا بأن «عاطف»

ابنه المنحدر من صلبه!.. ومع ذلك - وهو الأمر الغريب- لم يغير درويش معاملته الجافية الخشنة لابنه الوحيد.. ولم ينظر إليه أبدا باعتباره «بيضة الديك» أو الإثبات الوحيد لأبوته!.. ولقد صرعت هذه القسوة وجدان الصبى وأشعلت النار فى جراحه، ولكنه استطاع بقدرة قادر أن يتماسك فى مواجهتها ويتعامل معها بهدوء مدركا فى وعى مبكر أن علاقته بالأب ستستقر إلى حد كبير إذا استطاع أن يحافظ على مسافة تفصلهما، وأن يحرص على عدم الاقتراب منه متجاوزا نقطة حرجة يعرف أنها تمس وترا مشحونا داخل الرجل يدفعه للغضب إلى درجة الجنون.

- لا طالما سمعت جدتى تردد ذلك المثل «إللى تعرف ديته اقتله» وقد عرفت دية أبى فعرفت كيف أراوغ سلوكه العدوانى المتحفز بل وأظننى قد نجحت فى تكوين رصيد إيجابى لى عنده خاصة حين نجحت أعماله وازدهرت تجارته وتكاثرت مشروعاته وتكدست أرباحه بأرقام فلكية.. ولم أعترض طريقه أو أضغط على زوايا الاستقامة المفقودة والخطايا المتفشية فى إدارته لأعماله.. وللحق أشهد أنه ارتكب كل الموبقات وكل صنوف الكذب والخداع والتدليس الذى مكنته من إقامة تلك الإمبراطورية المالية التى جعلت من اسم «درويش البتانونى» علما على قوة المال وجبروته وحمايته لمن يمتلكه بغض النظر عن وسائل الامتلاك!

واستطاع عاطف بدافع من الذكاء الفطرى أيضاً أن يبعد عن نفسه شبهة الطمع وانتظارا للحظة التى يرحل فيها الأب ليرثه خاصة وهو الوارث الوحيد.. فكمن بعيدا عن مواقع الأحداث والارتطام اليومى بالمصالح وعلاقات العمل.. مكتفيا بالملاحظة عن بعد وتاركا أعمامه- إخوة درويش- ينفردون بالسلطة وتسيير الأمور بتعليمات من الشقيق الأكبر.. لذا فقد بدا عاطف فى أعينهم كيانا مهمشا مسالما لا خطر منه

واستقر في ظنهم أن درويش لايمكن أن يأتمن هذا الفتى المتوحد المتقوقع حول نفسه على تركته الطائلة وأنه لابد أن يرتب الأمور بشكل ما.. وكان الأمر فيما يبدو مثار تفكير الرجل وانشغاله.. وفي بدايات الوعكة التي أصابته ولم تشر إلى خطر ذي بال «ثم تداعت تطوراتها طلب أن يوافيه عاطف.. وصعده بنظرة يشيع فيها الأسى والإحباط.

– كانت المرة الأولي والأخيرة التي يكاشفني فيها بأمر من أمور الثروة والتجارة والمشروعات ومصيرها إذا حم القضاء وحان أجله.. وأخبرني أنه لا يؤمن بقدرتي على حمل مسئولية البنيان الشامخ الذي أقامه –كما قال– بدمه ودموعه وعرقه.. وأنه يكاد يوقن بأنني سأضيع كل شيء، وأن العقل والحكمة يدعوانه لأن ينقل ملكية كل شئ باسم أشقائه الذين ساعدوه وأقاموا معه صرح النجاح.. لكنه يعرف تماما أنهم ينتظرون موته.. بل ويتمنونه.. ويبرمون بطول عمره.. طمعا بأن يترك لهم الجمل بما حمل وقد وعدهم بأن يفعل لعدم ثقته بابنه الوحيد الذي سيكتفي بتوريثه جزءا من الثروة يكفيه لكي يعيش حياة رغدة مستقرة!.. وقال لي الحاج –إذ كان قد أدى الفريضة مثنى وثلاث ورباع– أنه يرى لعاب أخوته يسيل.. ونظرات عيونهم تتعجله.. وهو يكره ذلك ويفضل أن يترك لي المال كله أفعل به ما أشاء على أن يرثوا منه مليما ويضحك عاطف وهو يستطرد بلهجة المعجب بملحة أو نادرة:

– ولقد فعلها فجأة.. ورحل ذات فجر على حين غرة.. لتبدأ محنتي!

غاضت الضحكة.. وكأنها قطرة ماء تلقفتها رمال ساخنة!.. واستقرت السحابة الداكنة ملقية بظلها على الوجه الطفل.. بينما شدهني تعبير «المحنة» ولكني لم أسأله مستحثا وتركته ليستجمع نفسه ويلملم أطراف ما يريد البوح به.. ولم يطل الأمل فبعد دقائق قليلة.. مسح بكفيه على وجهه كمن يستفيق وبدأ يسرد حكايته لأعرف أن

المحنة بدأت كرد فعل للصدمة العنيفة التى لقيتها أحلام الأخوة حين رحل الأخ فجأة ودون أن يرتب لهم ما وعدهم به.. فالثروة الطائلة تذهب إلى وارثها الوحيد.. عاطف درويش! وإذ تتحطم الأحلام والأطماع فشظاياها تتناثر شرا وإثما.. وهذا ما حدث فى بورسعيد بعد رحيل درويش وتربع عاطف على قمة الإمبراطورية.. فلم يعد الأعمام أهلا.. ولم تبق لعلاقة الدم حرمة وانبعث مارد القسوة الشريرة يبرر كل الخطايا.

- التفوا حول المحامى الذى زين لهم الولوغ فى عرض أمى ولجأوا إلي شكوك أبى القديمة وذهبوا بها إلى القضاء طاعنين فى انتسابى اليه وحقى فى وراثته وامتدت القضية لسنوات بادلتهم فيها هجوما بهجوم واتهاما باتهام ودفعنى العناد للاستعانة بمجموعة من أقدر المحامين الذين صالوا وجالوا واستعانوا بتقارير طبية وتحليلات معملية حتى انتهت الرحلة التعسة بخذلان الأعمام وخسارتهم للدعوى فى جميع مراحلها ومع ذلك لم يتنابهم اليأس ولم يرفعوا الرايات البيض.

كان صمته هذه المرة صمتا سابغا طويلا ران على جلستنا حتى انحدرت الشمس لأفقها الغربى فتخيلت أنه قد قرر ألا يزيد واكتفى بما حكى.. ولكن الحكاية ناقصة ومؤداها لا يغنى ولا يشبع فضولا فكان لابد أن أسأله «وماذا بعد؟».. فرنا إلى وقد اكتسى وجهه بسمات غيرت ملامح الطفل الوادع فيها وأطلقت فى العينين شواظا من حزن ملتهب لا ينتج إلا من معاناة لجراح عديدة تركت ندوبها فى الروح لا تبرح ولا تستريح.. وحين تكلم جاء صوته هذه المرة مرتجفا مفعما بمرارة طافحة! وأخبرنى أن أعمامه قد تظاهروا لحين بأنهم كفوا عن ملاحقته ومزاحمته على الثروة.. بل لقد تقرب إليه أحدهم وأبدى اعتذاره ملتمسا أن يصفح عنه ويفتح معه صفحة جديدة تستدرك إحن القضايا والمنازعات وتعيد الاعتبار لعلاقة الدم والرحم! ولم يجد بدا من التجاوب

معه والوثوق به والركون إليه.. فقربه وأشركه وفتح له مكنون صدره.. ثم راح على سجيته يحقق برنامجا لتطهير الثروة ورفع ما شابها من سلوكيات أخلاقية وتصرفات إجرامية وما ألحقته من الآلام والعذابات بكثير من ضحايا الأب.

- بدا لمن لا يعرف ما أعرفه أننى أبعثر الأموال وأخرب المنشآت وأتصرف بنوع من الحماقة والسفه وكانت تلك هى الفرصة التى ينتظرونها.. فخرجوا من مكامنهم كالذئاب الجائعة فى جوف ليل نسجوا خيوطه من تآمرهم ويساعدهم أخوهم الذى احتضنته وفتحت له صدرى ووليته الكثير من أمورى.. وانقضوا على بلا رحمة لأرى نفسى خلف الأسوار!.. فقد استطاعوا أن ينصبوا الشرك بكل ما ملكوه من براعة الشر ومهارة الأذى.. ودفعوا الأموال.. واشتروا الذمم والضمائر ليحصلوا فى النهاية على بغيتهم فيتم إيداعى مستشفى الأمراض العقلية وأظل هناك.. لعشر سنوات كاملة.. بينما تولى أحدهم مسئولية إدارة الثروة باعتباره قيما على الرجل المريض.

هل كانت دموعا.. تلك التى لمعت فى العينين تحت انعكاس آخر أضواء الغسق؟.. وهل كانت دموع الذكرى.. أو توهجات أحزان لم تزل مشتعلة؟..

لم تكن هذه هى الأسئلة المطروحة فى ذهنى ساعتها.. فقد كان هناك سؤال أكبر وأهم..

- ومتى خرجت.. وكيف؟.
- إذا بقيت الليلة فسوف تعلم!
- ولماذا لا تحكى الآن؟..
- طاف بى طائف المساء.. وسأكف عن الكلام لما بعد العشاء..
- أهى حكاية شهرزاد مرة أخرى؟

-٤-

غسق الذئاب

أسدلت ستائر داكنة ثقيلة على الزمن فأخفت معالم الأيام، وبعد أسابيع الصدمة الأولى التى أعقبتها أسابيع أخرى للدهشة والذهول والبحث عن إجابات تفسر وتبرر وتوازن أطراف المنطق المبتعد والجانح على صخور العبث.. جاءت أسابيع المقاومة والرفض والتشبث بذبالات أمل يتراقص كلهب شمعة يخفق فى الردهات الليلية الملتوية.

لكن الليل أطبق على «عاطف درويش»! وبالتدريج أيقن أن محاولات المقاومة والجهد بالرفض واطلاق صرخات الاستغاثة والاحتجاج على ما حيك من تآمر لن تؤدى به إلا لمزيد من الغوص فى الرمال الناعمة، وكان يرى الأضواء تخفت ثم تنطفئ ضوءا إثر الآخر فيطبق جفنيه على التماعات غسق أخير ولا تتبقى لديه من المحسوسات غير أصوات تتقاطع فى أذنيه لعواء الذئاب ونعيب الغربان فى الخرائب المحيطة! حتى لقد وقر فى سريرته أن السور ربما كان سياجا للحماية أكثر منه قضبانا تسجن!

جاءنى المحامى الذى يتولى مصالحى القانونية ليخبرنى بأن حكم الحجر ومؤامرة الإيداع بمستشفى الأمراض العقلية ليسا آخر الطريق بل ربما كانا بدايته.. فلا يزيدان عن كونهما خطوة على طريق طويل قد يمتد فى الزمن القادم أميالا من السنين تتعدد فيها جولات الهزيمة

والانتصار.. وأنه بالرغم من إيمانه القاطع بحتمية الانتصار الأخير إلا أنه يعرف ما يسبقه من رحلة شاقة مضنية تشهدها أروقة المحاكم وتمر عبر مراوحات متناقضة تتطلب كثيرا من الصبر.. والتشبث بالإيمان: «أعرف يا ولدى كما تعرف أنك سليم العقل وليست بك جنة أو حتى طائف من جنوح..

وأعرف أن هذه «المعرفة» لا عزاء فيها بل تزيد طين الآلام بلة.. وأعرف أن الزمن فى هذا المكان وبين هذه الجدران بخطوه المتلكئ، يعد محنة قد تصيبك فى نهاية الأمر بما لفقوه لك فتفقد قواك العقلية إذا لم تستطع ربط جأشك والتمسك بالإيمان.. وسأحاول من جانبى أن أفعل كل ما استطيعه من أجلك.. لكن جهودى وحدها لا تكفى.. فجهدك مع نفسك هو وحده الكفيل بانقاذك».. هذا الرجل يا صديقى كان الصانع الحقيقى لأيامى الحالية.. ولهذه الساعات التى أقضيها معك.. عيناك تسألنى «كيف»؟ وأجيبها أنه لم يكن مجرد محام يمارس مهنته وواجبه تجاه موكله.. بل كان إنسانا مهموما بمحنة إنسان آخر.. فقد تعاطف مع قضيتى لدرجة التوحد.. وكان الظلم الفادح الذى تعرضت له يقض مضجعه ويؤرق ليله.. «أحس يا بنى أن كل ما درسته في كلية الحقوق.. وكل ما آمنت به من مبادئ العدل والخير وحتمية انتصار الحق.. أحس أن هذا كله أصبح على المحك.. وإذا خسرت معك معركة النضال ضد هؤلاء الذئاب الذين أنشبوا أنيابهم ومخالبهم فى لحمك فقد خسرت كل شئ وباعت حياتى كلها بالخذلان المبين».. لم يكن أبدا من محترفى المهنة ولا ممن يتباهون أو يبنون شهرتهم على مهارتهم فى التلاعب بالقوانين ومراوغة العدل والحق.. بل وقد عرف بين أترابه وزملائه أنه لا يقبل إلا القضايا التى يرتاح إليها ضميره ويؤكد له أنه سيمثل فيها الطرف صاحب الحق.. وكان هذا بالطبع على حساب ما

كان يمكن أن يحققه من ثراء مادى عريض.. ولماذا نشطح بعيدا ولدينا على الجانب الآخر فى نفس القضية.. ثلاثة من كبار المحامين الذين وكلتهم الجبهة الأخرى، جبهة أعمامى الأفاضل!! ولكنهم شاركوا فى التخطيط «القانونى» للمؤامرة وهم يعرفون جيدا أنهم يشاركون «المعتدى» و«الغاصب» و«الطامع» ويدعمون «اللص» الذى يستحل لنفسه حقوق غيره فيسطو عليها بلا وازع من ضمير.. وقد أمن فى ظل براعتهم «القانونية» من أن ينكشف شره أو يدان.

يسمون هذا الصنف فى الثقافة الغربية «محامى» الشيطان!

أدليت بتعليقى بينما كان عاطف يلتقط أنفاسه وقد جلسنا تحت تكعيبة الكروم خلف بيته.. وواحد من خدمه يعد لنا «زردة الشاى» على الطريقة البدوية بطقوسها التى تجعل لمذاق الشاى نكهة فائقة «الخصوصية».. لم تكن مصابيح التكعيبة مضاءة- رغم وجودها- وكان مصدر الضوء الوحيد فى ليلة لم يبزغ فيها قمر هو انعكاسات وهج الفحم المشتعل تحت «غلاية» الشاى «لا أعرف على وجه القطع أكانت فحما كما تخيلت أم «قوالح» الذرة!.. ولم يكن الوهج كافيا لأتبين ملامح عاطف ولكنى أيقنت لسبب غامض لا أدركه أنه كان يبتسم!

- هل تصدق أن واحدا من هؤلاء اعترف لمحام فى لقاء جمعهما بعد صدور الحكم القضائى الأول بأنهم كانوا واثقين تماما من سلامة صحتى العقلية وصحة تصرفاتى المالية.. وأن قضيتهم اعتمدت أساسا على شراء الذمم ورشوة الشهود وتلفيق الأدلة وتزوير المستندات! وحين أبديت استنكارى لأن يقدم خدم الحقيقة ورسل القانون على مثل هذا الفعل.. ابتسم ساخرا وقال «هناك يا بنى مدرسة فى هذه المهنة تقول إن المحامى يخدم قضيته أيا كان موقعها من الحق أو الباطل.. لأن الحقيقة «القانونية» شئ والحقيقة «الأخلاقية» شئ آخر ولا يجب الخلط

بينهما».

صمت عاطف مرة أخرى.. ولم أظن أنه يبتسم هذه المرة، ارتشفنا «الشاى» فى صمت وكان أزيز الغليان فى الغلاية قد هدأ.. وعلت فجأة وبلا مناسبة أصوات جنادب الحقل ونقيق الضفادع فى المزرعة المجاورة فوجدتها فرصة لأقطع الصمت بسؤال عن تلك الضفادع العملاقة التى رأيتها تتقافز قبيل الغروب.

- هى مزرعة للضفادع يا صديقى.. من نوع مطلوب للتصدير.. إنهم يصنوعون منها أطباقا للحساء والطعام فى فرنسا مثلا.. وهى أطباق شهيرة ومميزة..

- مزارع للضفادع.. وخلايا للنحل.. وصوبات للفواكه والأزهار.. وماذا أيضاً يا عاطف؟

- حكاية كبيرة يا صاحبى.. لم ترمنها إلا أقلها.. إذا قبلت دعوتى ومكثت معى قليلا فسأريك مايدهشك ويسعدك فى أن.

- ولكنى فعلت.. وها أنا أقضى ليلتى الثانية فى ضيافتك.

- ضيافتى لا تقل عن أسبوع أو عشرة أيام.. وأرجوك لا تتعجل الدهشة ولا تشهق مستنكرا.. فلن ألح عليك لتبقى! لكنى فقط أعرض عليك.. مثلما عرضت على أصدقاء آخرين سيتوالى وصولهم يوما بعد يوم ليكتمل العقد ونحتفل معا بيوم الميلاد!

- هل اقترب عيد ميلادك؟!

- فى نفس اليوم سأحتفل أيضاً بميلاد حلمى متحققا فى «جنة درويش»! جنة درويش؟ أى حلم هذا الذى يراوده؟ أتراه يريد أن يحقق مشروعا زراعيا مزدهرا لينشئ واحة فى قلب الصحراء؟ واحة يصنعها الإنسان لمتعته؟ أم هو مشروع عملى يرفع عليه «لافتة» براقة؟ و.... أخرجنى صوته من لجة الأسئلة المتلاطمة.

- ولا حلمى فى جوف الغسق الطويل داخل الجدران.. لم يكن أمامى إلا أن أخلق لنفسى عالما أهرب إليه من واقع المصحة العقلية! وكانت محاولتى الأولى فى سبيل «ايجاد» هذا العالم أن «أفلت» من جلسات العلاج بالكهرباء أو الحقن بالأنسولين.. لأنى عرفت مدى ما يمكن أن تدمره إذا لم أكن فعلا بحاجة إليها.. وأظن أن هذا ما عناه المحامى حين نبهنى لما يمكن أن انتهى إليه داخل المصحة من جنون حقيقى.. وقد عاوننى فى هذا الأمر لدرجة أننى أظنه قد دفع من جيبه الخاص.. «مايلزم» لإعفائى من خطوات العلاج المقررة! وإذ نجوت من هذا المصير عكفت على «بناء» العالم الملجأ، ذلك الذى أوى إليه ليعصمنى من الاشتباك مع مفردات التعامل اليومى فى المصحة.. ووجدت أن «الحلم» هو ما احتاجه! ورحت أدرب مخيلتى واستخدام أحلام اليقظة فى تكوين حلم حقيقى يصلح لأن يتواجد على الأرض.. وليس خيالا محلقا فى فضاء الوهم! فكرت فى أحلام الفلاسفة كما قرأت عنها فى كتاب سلامة موسى القديم.. وفى يوتوبيا «توماس مور».. وفى «مدينة الشمس» كما حلم بها «كامبانيللا» واستعدت فى ذاكرتى تلك الصورة القديمة التى انطبقت فى مخيلتى لجزيرة الأحلام! نعم.. حلمت بأن أبنى مدينة.. ليست تلك المدينة الفاضلة المؤسسة على نظريات الجمهورية الأفلاطونية ومثاليات الاشتراكية الخيالية عند «فورييه» و«أوين» بل مدينة البساطة والحرية.. مدينة ينعم فيها الأصدقاء بالرفقة الدائمة فى حياة يحققون فيها ما يريدونه لأنفسهم من مشروعات دون أن تعيقهم عقبات التمويل وتحكم صاحب رأس المال.

- مدينة مرة واحدة يا عاطف؟

هل طغت على حروف جملتى أى نبرة سخرية؟ لا أعلم! لكن صديقى

ظل صامتا لفترة أوحت إليّ بأننى قد ضايقته فعلا! ثم أتى صوته أخيراً يحمل بعضا من ذبذبات جفاء بارد!

- سمها قرية يا صاحبى! أو حتى ضيعة.. فليس الأسم بذى بال.. ما يجب أن تفكر فيه كما فكرت هناك هو جوهر الفكرة! أتعلم أننى ناقشتها مع أستاذ جامعى كان يزاملنى هناك؟ أجل.. كان واحدا من قلائل لم يبلغ بهم المرض مبلغ الانفصال الكامل عن العالم، وظلت لديهم خيوط وجسور تربطهم بالواقع وكان هو أقلهم مدعاة للاستراتبة والقلق.. وربما كنت قد سمعت عنه إذا كان شغفك القديم بالقراءة والمطالعة قد ظل يلازمك.. فهو أستاذ للأدب والنقد بإحدى كليات الآداب.. الدكتور محمد المعتصم عبدالله!

لم يكن الاسم غريبا على سمعى.. فله بالتأكيد أصداء باقية.. فأمنت على كلام عاطف بحرارة بينما اقترب هو منى بوجهه حتى استطعت أن أتبين ملامحه لأول مرة فى تلك الليلة.. وكان يبتسم ابتسامة تشبه تلك التى ترتسم على وجه من يتهيأ لسرد ملحة أو طرفة.

- أتعرف ماذا قال لى حين حدثته عن جنة درويش وما أعده لها فى أحلامى؟ لقد قال إننى أشبه شخصية خرجت من روايات ديستويفسكى.. ولعلى أقرب ما أكون للأمير «ميشكين».. أتذكره؟

طبعاً يا صديقى عاطف.. أذكره..

همست له وأنا أبادله الابتسام.

- ٥ -

زيارة ليلية

تعالت أصوات الضفادع وصرير جنادب الحقل فى المساحات الليلية السابغة وقد انقطع خيط الحديث وساد صمت كاد أن يطول ويرسل إشارات الكرى إلى الجفون .. وواتتنى للحظة فكرة أن أنتهز الفرصة وأطلب منه أن ننصرف لمخادعنا .. وقبل أن أنفذ قطع هو خيط الصمت وواصل الحديث..

- أتضجرك حكاياتى؟..

- إطلاقاً . ولولا ما تحويه من ذكر آلامك ومعاناتك خلال سنوات المحنة لزعمت أنها تمتعنى.

ولم أكن مجاملاً وما كذبته القول .. كان حديثه يمتعنى فعلاً .. وكانت طريقته فى سرد ما مر به من أحداث تثير اهتمامى وشغفى.

- أتعرف ؟.. أنا أتحرق لهفة للحظة التى ستروى لى فيها كيف خرجت من هناك؟.. وكيف استطاع محاميك أن يقنع المحكمة أخيراً بأنك سليم العقل، كامل الأهلية، وتستحق أن تخرج للعالم وتواصل حياتك كما تفعل الآن.

- لن تصدقنى!

خرجت عبارته قاطعة حادة سريعة كطعنة سيف خاطفة..

- ولم لا أصدقك؟..

- «هى» لم تصدقنى! فكيف تصدقنى أنت؟

- ومن «هى»؟..

- تريد أن أحدثك عنها؟.. حسنا!

رق صوت عاطف وانتقل إلى طبقة لم أسمعها فيه من قبل!.. وانتبهت لأول مرة أن الصوت العادى دون غناء قد يحفل بما يسميه الموسيقيون بـ«العرب».. وهى خفقات أو ذبذبات تتناغم مع الكلمات وكأنها وجيب «القلب».. فترجف نبراته وفقاً لما تحمله الحروف من دفق المشاعر..

- عرفتها فى أول سنوات المحنة !.. ذات نهار رأيتها فى حديقة المصح .. أجمة من شعر ذهبى تعلو بشرة بلورية ينم أديمها عن مسارب شراب الورد.. يعلوها ذلك الزغب الأشقر تلمسه ولا تراه .. وأما الوجه فعينان..

نعم .. هما ما تراه حين تنظر .. عينان ترسلان فيضا من ألق «بنفسجى».. آه ياصحبى!

لم أك قد رأيت عيونا بنفسجية من قبل .. فقد تربينا على الغزل فى العيون السود .. والخضر .. وبهرتنا أحياناً زرقة عيون «الخواجات» لكنى لم أر ولم أسمع من قبل عن عيون بهذا اللون .. فقط أحسست به كموجة بحر ربيعى تغمرنى فى هدأة الصباح .. وتقرر مصيرى !.. وتكتب السطر الأول فى كتاب النجاة..

واسمها «نجاة» .. نجاة المعتصم عبد الله! الشقيقة الصغرى لرفيق الليل والمحنة والعنبر ..

جاءت تزوره وتحمل له طعاماً يحبه .. وبينما انتحى بوجبته جانباً يتشارك فيها مع بعض النزلاء والمرضين.

فضلت أنا الاستسلام لقدرى .. قبعت أمامها مسحوراً أسألها وتجيبنى .. وأعيد أسئلتى فتضحكها .. وأضحك معها فنتقارب ونشعر بذلك الدبيب الخافت لخطوات القدر المتأهب!.. فى دقائق كنت قد رويت لها كل فصول القصة التى ألقت بى فى غسق الذئاب الشرهة!.. وفى دقائق أخرى عرفت منها ما لم يخبرنى به الدكتور المعتصم!.. كنت أظنه - حتى من سرده هو لحكايته - مريضاً حقيقياً . وحين نبهنى مرة معابثاً مازحاً أنه طالما كان «يتظاهر» بالعرض حتى لا يسقط فى «المرض».لم آخذ إشارته مأخذ الجد .. لكن «نجاة..» كانت لها أقوال أخرى.

- شقيقى ليس مريضاً وليس بعقله علة من أى نوع لكنه كان «خطراً» ماثلا يجب التخلص منه .. لقد ساوموه أولا بذهب المعز .. وحين رفض أشهروا سيفه .. والمسألة برمتها أن هناك «ولدا» معجزة ... (أليس هذا هو التعبير الشائع عن أى ابن لواحد من ذوى النفوذ القاهرين يراد له أن يطفو على السطح فوق رءوس الجميع !؟.. وهذا الولد المعجزة كان يجب أن ينجح ويحصل على الليسانس بتقدير متفوق ليعين فى الكلية ويواصل صعوده عبر الماجستير والدكتوراه بالسرعة نفسها .. لكن الدكتور المعتصم بصلابة رأسه ورفضه لأى استثناءات وقف بالمرصاد فى طريق الفتى المبشر بالمجد ولم يأبه لمحاولات عجم العود وتليين الدماغ .. وأخذته العزة بالكرامة الجامعية وقدسية العلم الذى لا يفرق بين أبناء الأمراء وأبناء الخفراء وبدا كما لو كان قد عثر على قضية وجوده .. ولقد حاولنا - نحن أهله - أن نطامن من غلوائه

ونضع حداً لاندفاعه ولكنه قفز متخطياً كل الخطوط الحمراء..

صمتت وكأنها تدرك أن ما لم تذكره صار مفهوماً .. لذا راحت تهز رأسها إيجاباً وأنا أكمل لها..

– وطبعاً كان الحل أن يتم إبعاده .ولا يوجد أسهل من اتخاذ الحالة العقلية ذريعة .. فأتوا به إلى هذا المكان!

هل بدت الحكاية مألوفة أكثر من اللازم ؟.. ولم أعرف.. لم يكن لدى ما أحدد به إذا كانت القصة أصلاً من وضع عاطف أو أنها حدثت فعلاً كما روتها «نجاة» ذات العيون البنفسجية على لسانه .. ولم أجد فى نفسى ميلاً لمناقشته .. وفضلت أن أكمل سماع قصة .. وقد أثارنى فيها ما يتصل بعلاقة الحب التى ولدت خلف الأسوار.

– كنت أنتظر زيارتها كمن يحلم بإطلالة العيد وأفراح الطفولة!.. وكان شقيقها يلاحظ .ويبتسم كلما رآنى أسبقه إلى مكان الزيارة .. وقد حدث فى مرة أن صادر موظفو المصح ما أحضرته نجاة من طعام ولم يجد الدكتور ما ينشغل به عنا .. ولم ينطق أحدنا ببنت شفة .. فنهض أخيراً وهو يقول:

– سأذهب إلى حيث يذهب الناس حين تلجئهم الحاجة لإفساح المجال!..

يومها سألتها : هل يمكنك أن تحبى رجلاً محكوماً عليه بالجنون ولا أحد يعرف متى يمكنه الإفلات من أسره؟..

ورنت إلىّ هامسة : لقد أيقنت من أول لحظة لقيتك فيها .. أنك تماماً مثل أخى .. لا تشكو من أى علة بعقله وأنك هنا بحكم قوة قهرتك كما قهرته!..

ليلتها لم أنم .. حتى حدثت الزيارة قبيل الفجر بقليل..

- أى زيارة تلك التى تحدث قبيل الفجر..

أحسست بأنفاسه تتصارع تكاد تصل إلى درجة اللهاث .. وبرقت فى حلكة الظلمة بيننا نظرة محمومة..

- لم أره قبلها .. ولم أتعرف عليه حين تسلل إلى العنبر .. وجلس على طرف سريرى وهزنى من كتفى ليوقظنى..

- من هو؟..

- قلت لك لم أعرفه .. ولم أره بعدها .. عرفنى بنفسه فقط فى كلمتين «فاعل خير» وهمس فى أذنى بأن على التحوط وآخذ الحذر ومراقبة الدكتور المعتصم لحمايته وقت اللزوم .. لأنهم ينوون قتله!!.

- ينوون قتله؟!

- هكذا أخبرنى حرفياً!

- ومن هم هؤلاء؟..

- لم يصرح لى واختفى بنفس الطريقة التى ظهر بها وكأنما تنشق له الأرض!! وأصارحك بإنه رغم ما انتابنى من فزع إلا أننى عللت نفسى بأن ما حدث لم يكن حقيقياً وأنه ليس من قبيل أضغاث الأحلام واسترحت لهذا التبرير حتى استدرجنى النوم فنمت .. ليلتها فقط.

.. صمت فرحت أفكر فى معنى جملته الأخيرة «ليلتها فقط» وانتظرت أن يستطرد ولكنه لم يفعل حتى هتفت به..

- ماذا تعنى بليلتها فقط؟.. وماذا عن الليالى الأخرى؟

- لم أنم ولم يغمض لى جفن .. ليس لأرق تملكنى أو سهد استبد بى .. ولكن لأنهم طفقوا يكررون الزيارة كل ليلة!

- ليلتان متتاليتان ثم ليلة التنفيذ!.. كانوا يصحبونه خارج العنبر ويقيمون الحراس على بابه حتى لا أحاول أو يحاول أن يتبع الموكب ..

فى الليلتين الأوليين كان يعود مع خيوط الشروق الأولى ليتهالك فى فراشه كمن أجهده السير لمسافات طويلة .. ومازلت أذكر مساء اليوم الثالث .. حين استيقظ من غفوة طويلة استغرقت الأصيل والغروب .. فتح عينيه من أضواء الغسق الكابية وهو ينتفض ويجلس قبالتى .. ويأتى صوته متحشرجا منسحقا ليطلب منى أن أرعى «نجاة» وأن أتزوجها بمجرد استطاعتى الخروج!..

– عدنى!

– أعدك!

– هل تقسم على الالتزام بهذا الوعد؟

.. وأقسمت له .. استرخت ملامحه .. وأغلق عينيه ونام .. بعده بساعة أو أقل جاء الحراس والمرضون لينقلونا إلى عنبر جديد!

ونهضت واقفا..

– سأمضى للحجرة التى هيأتها لنومى تصبح على خير..

– لا تريد أن تعرف باقى القصة ! معك حق .. فلن تستطيع أن تنام إذا عرفتها!

وقبل أن نفترق على تحية النوم .. وجدتنى بدافع قهرى أهتف به:

– هل قتلوه ليلتها؟..

وأجابنى .. وهو يمضى إلى غرفته دون أن يلتفت نحوى..

– وجدوه فى الصباح بالعنبر القديم وقد شنق نفسه بملاءة سرير.

-٦-

النهار الغائم

لم أعرف أبدا هل كانت الساعات التى نمتها ليلتى أم ليلته! فالنوم لم يكن نوما على الأقل لم يكن «نومى» الذى اعتدته وألفته.. كان «نومه» هو، فأحلامه وكوابيسه هى التى امتلكت عقلى الباطن.. أو لنقل إنها اقتحمته واحتلته لليلة كاملة!

*رأيت شخوصا بملامح لا أعرفها ولكنها قدمت نفسها بأسماء كان قد رواها لى، رأيت محاميه الكهل ورفيقه فى العنبر الدكتور المعتصم (رأيته يشق ملاءة السرير ويصنع منها أنشوطة للشنق وهو يبتسم ويغمغم بكلمات لم أتبينها) ورأيت نجاة أخت المعتصم بعينيها البنفسجيتين (رغم ما يقال من أن صور الأحلام لا تتلون وأن أحلامنا تعرض بالأبيض والأسود.. ولكن ربما كانت ذاكرة الألوان تطغى على استرجاع الحلم أو الكابوس) بهرت بها كما انبهر.. وأحسست بقطرات ساخنة من دموعها تلسع أصابعى وكأنى كنت أربت على خديها.. ولم تكن ملامح أحد ممن رأيتهم ليلتها تطابق أو حتى تقارب ملامح ناس أعرفهم أو تتشظى قسماتهم على أرصفة الذاكرة المهملة.. ولقد قرأت ذات مرة عن نوع من أنواع التخاطر لا يتواصل فيه الشخصان خلال اليقظة فقط بل يتخاطران أيضا خلال النوم.. حين ترفع

بوابات الانفاق الحارسة للعقل الباطن لتتدفق منها إلي صدارة الوعى كل المخزونات والمكبوتات والآمال المشتهاة والرغبات المحرمة. وهذا النوع من التخاطر «المنامى» هو غالبا ما حدث لى ليلتها.. وفتحت عينى مع خيوط النهار الأولى قبل أن أستكمل ساعات نومى المعتادة تحت ضغط هاجس يطاردنى بسؤال ملح: ترى بماذا حلم هو؟ وأى مرئيات تراءت فى ساعات نومه؟ وقررت أن يكون السؤال هو أول ما أطرحه عليه ذلك النهار وقبل أن نتبادل تحية الصباح.

لكن النهار لم يكن صحوا وكانت الغيوم تلبد الأفق.. ولون الرماد يكسو كل شيء. ودعتنى دقات مهذبة لأحد الخدم إلى الإفطار الذى ينتظرنى فى الشرفة. حيث كنت أتوقع أن أجد عاطف.. ولكنى فوجئت بعدم وجوده.

قال لى كبير خدمه بأسلوب مهنى محايد يسيل رقة وأدبا بأن «الباشا» قد استدعى إلى الإسكندرية لطارئ عاجل كان لابد أن يستجيب له، وأنه يعتذر لى بشدة.. وقد وضع سيارته الأفخم تحت تصرفى لتعيدنى من حيث جئت!

تناولت إفطارى شاردا أفكر فى طبيعة ذلك «الطارئ العاجل».. وتقاطعت فى ذهنى أسئلة أفسدت طعم الإفطار الشهى الذى وضع أمامى! كيف لم يطلب منى انتظار عودته؟ وما هذا القرار العاجل بسفرى وكأنه أمر ترحيل.. مع أنه كان بالأمس يلح على بشدة كى أبقى فى ضيافته أمدا غير مسمى؟ ولماذا لم يتصل بى على الهاتف المحمول ليعتذر ويفسر؟ أحسست فى داخلى بشبهة إهانة ودفعنى هذا الإحساس إلى الانزلاق فى نوبة غضب حرون.. فرفضت أن أكمل إفطارى.. وقررت أن أرحل فى التو واللحظة! ولم يعارضنى أحد بالطبع.. وبعد دقائق كانت السيارة الفاخرة - وهى غير التى أقلتنى.. - بالأمس تقطع الطريق مخلفة وراءها «مزارع عاطف درويش»

اللافتة التى منعنى غضبى من إلقاء نظرة وداع عليها! ربما لأن هاتفا كان يراودنى عن بعد ويراوغ مشاعر الحنق والغيظ بهاجس يؤكد أن زيارتى لجنة عاطف لن تكون الأخيرة.

كان الطريق الصحراوى يرزح تحت ثقل النهار الجاثم وغيومه المتكاثفة، ويبدو كأنه طريق آخر لم نرتده قبلا.. وفى محاولة منى لصرف الذهن عن التفكير فى حكايات عاطف درويش رحت أشاغل خواطرى حول غرابة أن تجهض الشمس فى يوم صيفى كهذا! وهل هناك علاقة من أى نوع بين «تغيرات» الطبيعة وأمزجة البشر؟ ولم أطل فقط سخرت بداخلى لسذاجة السؤال وغبائه: أليس من تحصيل الحاصل أن نقر بوجود تناسب طردى وحتمى بين سوء المناخ.. وسوء الطباع؟ وإلا فمن ذا الذى يتحمل عواصف الخماسين التى تهب على مصر فى الربيع فتحيله جحيما مغبرا خانقا دون أن تتوتر أعصابه وتضج مشاعره؟ ومن الذى يتحمل موجات الحر والرطوبة المتتالية عبر ما يسمى بمنخفض الهند الموسمى فى صيف قائظ طويل ويظل محتفظا بتفاؤله ورقته ودماثة خلقه؟ وكيف اكتسب الاسكندنافيون والاسكيمو واللابيون في أقصى الشمال طباعهم الوئيدة المتطامنة إن لم يكن نتيجة حياة مغرقة فى شتاء قارص دائم ودفء فاتر مقرور؟ ونجحت حيلتى الهروبية فى إبعاد صورة عاطف درويش ومزارعه وحكاياته طوال الطريق.

– افتتح النوافذ وأغلق مكيف السيارة يا أسطى!

نظر لي من خلال مرآة السقف بدهشة وانتظار أن أؤكد له طلبى فأعدته عليه وصدع به فورا. هو انتقام صغير من سيارة عاطف الفخمة.. وفعل تمرد على «كرمه» الاستعراضى الذى لم أكن بحاجة إليه! وأيقنت أننى أواصل تعبئة مشاعرى ضد الرجل بلا مبرر حقيقى.. فأردت أن أكون موضوعيا وأعيد ترتيب الأمور وفق تتابع حدوثها.

نسمات باردة مفعمة برائحة المطر تتسلل من نافذة السيارة، وذرات مسنونة ميكروسكوبية لا ترى ولكنها تسفى على وجهى دون أن أعرف إذا كانت مطرا أم رمالا..

- عفوا يا أستاذ.. أما زلت تريد النوافذ مفتوحة؟

وأيقن أننى قد أرد ردا يوبخه فسارع يفسر: نحن مقبلون على عاصفة!

- ولكننا فى «عز» الصيف يا أسطى باشا!

- نعم ياسيدى! ولكنها كثيرا ما تحدث ولعلك لا تعرف أن هناك «نوات» للصيف تماما كنوات الشتاء.. وأن الأمطار قد تهطل فجأة فى عز الحر.. وكنت أسمع من الوالد - رحمه الله - أن السنة التى يمطر صيفها لابد أن تشهد رحيل عظيم من العظماء.. وأذكر رغم أننى كنت طفلا أنها قد أمطرت ذات صيف فى أغسطس.. وفى سبتمبر الذى يليه رحل جمال عبدالناصر.. وبعدها بإحدى عشرة سنة أمطرت فى شهر يوليو وفى أكتوبر رحل «أنور السادات».

ظل السائق يسرد حكاياته وطرائفه التى كففت أذنى عن سماعها ولم أنتبه لما يقول إلى أن بدت مشارف القاهرة..

- ألا ترى حضرتك أن المسألة هنا مختلفة تماما؟ فالجو صحو والشمس ساطعة رغم سحابات الغبار والدخان التى تحيط بالمدينة كلها.

- المسألة لم تختلف.. والجو ليس صحوا.. والنهار غائم هنا بفعل الغبار والدخان، كما كان غائما هناك بفعل السحب والأنواء المخبوءة..

- زمانها غرقت!

باقتضاب من كلمتين أنهى الرجل كلامه.. «زمانها غرقت» ونظرت إلى وجهه في مرآة السقف وراعنى أن أرى ملامحه وقد تقلصت فى وجوم عابس أكد لي أن كلماته لم تكن عن الأمطار.. والمزرعة.. وأن هناك أشياء أخرى قد

تتعرض للغرق! لماذا ربطت بين هذا الخاطر وبين ما سمعته بالأمس من عاطف درويش؟ وما دخل السائق فى الموضوع بأسره؟ طفر منى السؤال قبل أن أفكر فيه..

- أى صلة قرابة تربطك بالأستاذ عاطف؟

رفع عينيه إلىّ فى المرآة تبرقان بدهشة يخالطها قلق يقترب من حدود الخوف! وحين خرج صوته كان يعانى من حشرجة أزالها بسعلة خفيفة.

- ومن قال إن هناك صلة قرابة بينى وبين الباشا؟ إذا كان الثرثار كبير خدم البيت قد تفوه أمامك ببعض كلماته الغبية فلا تصدقه! فليس إلا مجرد صياد.. يضع الكلمة المسمومة طعما لكى يلتقطه الآخرون فينبئونه بما يجهل

- أو هكذا يتصور - لكنه مجرد كذاب أشر.. والباشا يعرف عنه هذا الداء.. ولا أفهم لماذا يحتفظ به حتى الآن.

حرارة الدفاع غير المطلوب ألقت فى بحيرة حيرتى مزيدا من الأحجار فراحت دواماتها تتسع وتتلامس وتتكاثر لتصنع أمواها من الشكوك والتخيلات تترامى على شاطىء مهجور أقف فيه كنورس عجوز لم يعد قادرا على الطيران.. ووهن جناحاه.. فهبط اضطراريا على شاطىء لا يعرفه. هذا ما أحسست وأنا أجتر حنقى وغيظى مرة أخرى.

أى أعذار أحاول أن أخفف بها وطأة ما فعله بى عاطف درويش؟.. هو لم يسىء إلى مباشرة ولعل طارئا بالفعل قد فاجأه.. لكنه تجاهل انتظارى لبقية القصة التى رواها لى ثم بترها وهو يسرع إلي غرفة نومه «وجدوه فى العنبر القديم وقد شنق نفسه بملاءة سرير».

هل يمكننى أن أتخيل أنه لم يكن هناك «معتصم» ولا نجاه ولا زائر ليل منذر.. ولا مؤامرة قد حيكت للتخلص من الرجل يسجنه فى المستشفى ثم قتله فى النهاية؟

وعند باب منزلى.. هبطت السيارة وقبل أن أدخل من باب المنزل هتفت بالسائق:

– متى ينتظر أن يعود الباشا من الإسكندرية؟

رمقنى بنظرة طويلة مستفهمة.. ثم ابتسم:

– من قال إن الباشا فى الإسكندرية؟ .. ألم أؤكد لك أن الرجل كذاب أشر؟

تجمدت مكانى.. بينما انطلق الرجل بالسيارة لا يلوى على شىء.

-٧-

المرايا المكسورة

ألقيت بجسدى إلى ذلك الفراش الذى ألفته وعرفته لزمن طويل ومع ذلك لم يحتونى كما عودنى قديما ولم يسلمنى إلى هجوعى السلس الذى كثيرا ما أنقذنى من اجترار منغصات النهار! وأخشوشن المرقد على جلدي فنبا به واحتجزه على حافة الأرق حيث تتقافز الخواطر كالأشباح الضالة وكانت كلها تدور حول ما مررت به خلال الساعات الأربع والعشرين الأخيرة.

رواية عاطف درويش عما حدث له وصمته المفاجىء عن اتمامها.. ثم اختفاؤه المريب في الصباح التالى وتناقض كلام خادمه مع كلام سائقه وكان أكثر ما أربكنى فى هذه الخواطر ذلك النارغ الشيطانى الذى راح يحفر فى رأسى ويوسوس لى بأن عاطف قد استدعانى فقط ليعبث بى ويتسلى لساعات ثم يلقينى بعيدا وفى نفسى غصة ولهفة مبتورة ورغبة تستبد بى لأعرف ما بقى فى حكاية صديق الطفولة الذى خرج لى فجأة من أطلال الذكريات.

نوع من سبات أهل الكهف ذلك الذى استغرقنى ولم أدر كم لبثت فيه لكنى خرجت من بئره ذات غروب ولم أصدق ما أشارت إليه

«ترويسة» الصحيفة التى دفعها البواب من تحت عقب الباب ولو صدقتها لكانت ساعات نومى قد امتدت عبر يومين كاملين! راوغت نفسى بأننى لا أذكر على وجه التحديد تاريخ ذهابى لمزرعة «درويش» وربما كان بالأمس فقط.. لكنى لم أستطع مراوغة هاتفي الذى فاجأنى بقائمة طويلة لأرقام طلبنى أصحابها وتواريخها المسجلة تشير إلى يومين كاملين. إذا فلا مفر! واللجة قد أغرقتنى فيما يشبه الغيبوبة التى لم تترك لى حتى هامشا للوعى أستطيع من خلاله أن أسمع رنين الهاتف أو أتنبه لاحساسى بالجوع والعطش وأدى بي هذا لاستعادة شك كان يراودنى ويوحي بأننى لابد قد تعرضت لعقار مخدر دس لى هناك.. ولكن.. كيف يستقيم هذا الظن وقد استيقظت صباح ليلتى هناك وركبت السيارة وسافرت عائدا إلى بيتى؟ وقد نهضت غاضبا عن طعام الإفطار.. ربما قبل أن أبتلع أولى لقيماته؟! كلا.. لا يمكن أن يكون هذا صحيحا.. والمسألة برمتها لا تعدو أن تكون حالة من الإجهاد العصبى أسلمتنى لنوم عميق.. لا أكثر.

وأردت أن أعود إلى حياتى اليومية.. وكانت الخطوة الأولى أن أهاتف من حاولوا الاتصال بى خلال اليومين الماضيين.. ونظرت إلى القائمة.. اتصالان من زميل فى العمل.. وثالث من شقيقتى.. فقط.. ثلاثة أرقام.. ورقم آخر تكرر عشر مرات! رقم لا أعرفه ولم يسجل فى هاتفى قبلها.. وثار فضولى فطلبته .. بعد لحظات جاءنى الصوت.

– أستاذ «س».. أنا نجاة! أحاول الاتصال بك طوال يومين!

نجاة؟ تحول الصداع فى رأسى إلى نوبة دوار خفيفة لم تمنع تدفق ما يتصل بنجاة فى ذاكرتى.. صوت عاطف وهو يتحدث عن صاحبة العيون البنفسجية وما جرى له معها ومع أخيها د. المعتصم والمأساة

التى انتهت بانتحاره.

أفقت من دوار الذكرى سريعا على صوتها يهتف بى..

- أستاذ «س» أمازلت على الهاتف؟

- نعم يا.. آنسة.. أم سيدة؟

- أى آنسة يا أستاذ؟! أنا نجاة حرم عاطف درويش.. صديقك.. ألست أنت «فلان»؟

- بلى! أنا فلان.. وأنا آسف.. فما حكاه لى عاطف لم يصل إلى ارتباطكما بالزواج والـ.....

قاطعتنى فى عجلة واضحة: هل يمكننا أن نلتقى اليوم؟ أعذرنى لتعجلى ولولا خطورة الأمر ما أقدمت على ازعاجك!

قفز السؤال على لسانى قبل أن أفكر فيه: عفوا يا سيدتى.. ولكن.. من أعطاك رقم هاتفى؟

- هل المسألة مهمة؟ ومع ذلك.. عاطف هو من أعطانى الرقم.. أيشكل هذا فارقا بالنسبة إليك؟

شعرت فى لهجتها بنبرة ضيق ساخرة وأربكنى أن يكون اعتراضها على السؤال فى محله! فمن أين يمكن أن تحصل على رقم هاتفى إذا لم يكن من عاطف؟ ثم لنفرض أنها حصلت عليه من أى طريق آخر فلماذا أتسرع بالسؤال ولا انتظر حتى تتوالى المعلومات بطريقة طبيعية؟... اعتذرت لها وعللت السؤال بأننى حتى الآن لا أعرف من هى وما طبيعة صلتها بعاطف إلا ما تقوله هى.. وهو أمر يربكنى ويدفعنى للتحفظ.. لكنى مستعد لأن ألقاك على أى حال؟ أين تريدين أن يتم اللقاء؟

واتفقنا أن نلتقى فى مساء نفس اليوم فى أحد المرابع الكائنة على

تلة المقطم.. حيث قالت إنه يقع بقرب بيتها (كتمت دهشتي واستبقيت السؤال إلى فرصة تسنح فيما بعد: لماذا لا تعيش معه في مزرعته؟).. وفي الموعد تماما كنت أجلس في انتظار ذات العيون البنفسجية.. أطللت على القاهرة من عل وأنا أطامن من توترى الذى يتناوشنى بالتفكير فى مغبة تلك السحابة الكثيفة من الدخان والغبار التى تخنق عاصمة المعز.. ألف مئذنة تشرع ذؤباتها فى الآفاق وتجاورها أبراج لكنائس كثيرة تلمع صلبانها مع انعكاسات الشمس الغاربة.. وقريبا.. تتدلى من سقف التكعيبية فى المربع الخلوى فروع نبات متسلق تتسم وريقاته بخضرة نقية غير مغبرة كسائر ألوان النباتات الخضراء فى السفح أسفل الهضبة.. ربما لأنه بالأعلى لا تحمل الرياح أتربة مثل تلك تغترفها من جنبات التل لتلقيها أطناناً على رأس القاهرة فتحيل ألوان أشجارها ونباتاتها إلى ذلك الإصفرار المائل للخضرة! ومرقت إلى جوارى يمامة آفلة.. وتابعتها حتى رأيت نجاة قادمة.. كلا.. لم تكن هى بالتأكيد.. فهذه يصحبها رجل.. وعيناها يمكن أن ينتميا إلى أى لون غير اللون البنفسجى!.. لكنهما يتقدمان نحوى.. ولم يكن هناك سواى فى تلك البقعة من المربع.. لا شك أنهما يقصداننى..

– الأستاذ «س»؟

– نعم! أنا هو هو.. هل أنتما من طرف السيدة نجاة؟

أدركت فى لحظة ما حدث! لقد طرأ ما منعها من القدوم فأرسلت من يعتذر (.. ولكن.. ألم يكن باستطاعتها أن تتصل هاتفيا لتفعل؟) قبل أن يتداعى السؤال إلى أى شك آخر.. كانت تقطع باليقين:

– أنا نجاة درويش .. وهذا شقيقى.. دكتور محمد المعتصم!.. لا شك أن قناعاً من البلاهة قد استقر على وجهى يتطابق مع ما استقر

فى أعماقى من ذهول أقرب للصدمة!

– سيدتى ولكن..

– نعرف ما سرده عليك عاطف من حكايات المستشفى التى انتهت بانتحار الدكتور المعتصم! وزوار الليل والمؤامرة التى حيكت بسبب موضوع الفتى «الواصل» وآله الذين صمموا على منحه مالايستحق.

– تقولين إنك زوجته يانجاة هانم!

– نعم، وسأظل زوجته ولن أتخلى عنه يوما ما.. فأنا أحبه وإن كنت لا أعرف اللون الذى اختاره لعينى هذه المرة فى روايته لك.. فى مرة سابقة اختار الأخضر.. وفى مرة غيرها كان الأزرق.

– لقد اختار البنفسج هذه المرة..

– لا بأس فهو لون يتناغم مع ما فى صدرى من أحزان.

تنهدت، تندت عيناها بغلالة رقيقة من دمع تلمع ولا تنفرط.. ومد د. معتصم يده ليربت على كفها فى مواساة حنون ثم تولى دفة الحديث.

– بالفعل كنت مع عاطف فى المستشفى! ولكن بصفة طبيب لا مريض.. كنت الطبيب المشرف على «عنبر الحالات الخاصة».. وهو تعبير لا يعنى «الحالات الحرجة» التى يجنح مرضاها إلى العنف وإيذاء النفس أو الغير ولكننا كنا نطلقه على الحالات «الموصى عليها» أو التى يشتبه فى مبررات إيداعها.. كانت قضيته مطروحة أمام القضاء وتقارير الأطباء عن حالته تتضارب وتثير كثيرا من الاحتمالات.. فكلفت من قبل النائب العام شخصيا بمتابعة حالته! ومن اللحظة الأولى تعاطفت معه وأذهلنى أن يظل رهين المستشفى كل هذه السنين دون أن تقطع حالته بأى مرض نفسى أو عقلى من أى نوع.. وراعنى أن كل ما فى ملفه يدور حول اتهامات الأعمام والأهل وشهادات الأصدقاء

والجيران والموظفين العاملين فى شركاته.. وكلها أقوال مرسلة أقرب إلى أحاديث النميمة ودردشة المصاطب.. ولكنها مدعمة فى نفس الوقت بتقارير طبية لأساتذة تهتز لأسمائهم أجهزة المستشفى وقاعات المحاكم!.. وكانت نجاة تزورنى.. فتعرفت عليه.. وخالجها بدورها ما خالجنى تجاهه من تعاطف..

وبادرت نجاة بالتقاط الخيط مؤكدة:

- فى عينيه براءة طفل يدهشه العالم بكل ما فيه.. وتنطق كلماته مع نبرات صوته بحرارة لابد أن تصل إلى أعماق من يجلس إليه ويسمعه فيصدقه على الفور.. وأعتقد أن هذين الأمرين هما اللذان رجحا كفته فى النهاية وأطلقا سراحه.. وإن كان الدكتور معتصم لا يظن الأمر بهذه البساطة.

هز المتعصم رأسه موافقا بحماس: قضية عاطف درويش لم يحسمها إلا عمه الذى اختلف مع أشقائه فهدم المعبد على رؤوس الجميع!

ورنا إلىّ مبتسما: نجاة وحدها ترى فيه ما لم نره!

- لماذا اخترع قصة اضطهادك وإيداعك المستشفى والتى انتهت بإقدامك على الانتحار؟ أهى شهوة الكذب؟ أم إفراط فى الخيال أم مجرد العبث بمن يستدرجه إلى مزرعته؟... ولماذا لم أركم هناك؟

تبادلا نظرة حزينة تعبر عن اضطرارهما أخيرا للافصاح.. ومرت لحظة صمت ثقيلة توافقت مع آخر التماعات الغسق.

-٨-

بيت الخان

لماذا لا تبحث عن إجابات أسئلتك بنفسك؟

قالها الدكتور المعتصم بلهجة: من يتحرج ويخشى ألا يصدقه محدثه! ونظر إلى شقيقته نجاة كمن يستعين بها لتؤيد اقتراحه.. وفعلا هزت رأسها وهى تواجهنى بنظرة مستقيمة.

ضمنتها نوعا من الرجاء..

- سيكون هذا أقرب إلى عقلك وأكثر موضوعية وعدلا..

- سيدتى.. فلنترك مؤقتا كل الإجابات المطلوبة ولتخبرينى فقط.. لماذا وأنت زوجة عاطف درويش.. تعيشين بعيدا عنه؟

ساد صمت حرج، وحين طال هم الشقيق بأن يجيب عنها لكنها أوقفته بإشارة صامتة من يدها.. وواجهتنى مرة أخرى ثم جاء صوتها.. عميقا رصينا لا ينم عن أى ارتباك أو توتر:

- أخشى أن يكون سؤالك بداية لاستدراجنا إلى إجابات عن أسئلة أخرى طالبناك بأن تبحث عنها بنفسك ومع ذلك فسأقول لك باختصار إننى أعيش بعيدة عن عاطف بإرادتى لأنى أحبه! أعرف أنها إجابة

تزيد من مساحة الغموض ولا تشفى الغليل أو ترضى الفضول.. ولكنى لن أزيد عليها شرحا ولا تفسيرا.. ليس لرغبة منى فى مضاعفة حيرتك بل لإصرارى على إثارة عنادك كى تبدأ رحلة البحث!

أثارت كلمات نجاة حنقى.. فقد نبتت فى رأسى هواجس صنعتها حكاية «عاطف درويش» من بدايتها وبت أظن أننى وقعت فريسة لمجموعة تمارس نوعا من ألاعيب الفراغ.. (ولم لا؟ رجل مختل استعاد ميراثه الضائع ويريد أن يزجى أوقات فراغه وملله فجمع زوجته وشقيقها وبطانته، وراح يقودهم للعبة عبث يتناول فيها من يرد على ذاكرته ويوافق مزاجه.. وهناك مثل عامى طريف أظنه خير معبر عن مثل هذه الحالة ويقول: اللى معاه قرش محيره.. يجيب حمام ويطيره وما أظن الأخ عاطف درويش وصحبه إلا واحدا من مطيرى الحمام!).. ولم انتبه لنفسى إلا وقد ثار بركان غضبى.

- أى لعبة تمارسين يا سيدتى أنت وشقيقك الدكتور بإرشاد وتوجيه زوجك الممسوس؟ آسف وأستدرك فربما لم تكونى زوجته.. وربما لم يكن هذا السيد - مع احترامى - شقيقك.. ولعلك لست طبيبا ولا ممرضا وقد لا يكون اسمه الحقيقى المعتصم.. واسمك أيضا ياسيدتى من أدرانى أنك حقا «نجاة»؟ أنا لا أثق حتى الآن إلا فى اسم عاطف درويش لأنى أعرفه من زمن بعيد.. لكن غير هذا الاسم لا أثق فى شىء مما قاله.. ولا فى شىء مما تقولينه أنت وهذا السيد.. ولن أبقى هنا لأسمع حكاياتكم الزائفة إلا أن يكون لديكما ما يثبتها.

وتوقفت لاهثا وقد تفجرت مسام جسمى بالعرق كالميازيب.. وكانا قد

تسمرا مبهوتين وامتقعت فى وجناتيهما صفرة الدهشة والبغتة..

لم ينبس أحد منهما ببنت شفه.. لكن الدكتور تحرك بعد لحظات ليخرج من جيبه حافظة نقود جلدية صغيرة ويتناول من داخلها بطاقة «هوية» وضعها أمامى فى صمت.. وبسرعة تبعته «نجاة» التى استخرجت من حقيبة يدها رخصة قيادة وضعتها بدورها أمامى.

إذن فالاسمان صحيحان والدكتور محمد المعتصم أيضا طبيب ونائب مدير مستشفى للصحة النفسية!

والسيدة نجاة هى شقيقته فعلا.. ولكن..

- عفوا يا سيدتى! ولكن ماذا يثبت لى أنك زوجة عاطف فعلا؟

ابتسمت هذه المرة فى برود وهى تلملم أشياءها وتعيدها إلى حقيبتها:

- لم يعد يعنينا أن نثبت لك شيئا يا أستاذ.. ولا يهمنا أن تصدق أو لا تصدق دعنا نذهب يا دكتور.

وقد نهضت فى حركة حادة تشى بغضب حقيقى لكن المعتصم كان له رأى آخر.

- الأستاذ محق فى شكوكه وارتياباته يانجاة.. وأرجوك أن تبقى لدقائق قليلة.

وإذ صدعت بما أشار عليها وعادت للجلوس واصل هو الحديث بجدية وإيجاز من لا يريد إطالة الجلسة:

- طلبت نجاة مقابلتك وجئت معها بتوجيه من عاطف أولا هو يلعب كما قدرت أنت.. ويشركنا أحيانا فى ألعابه ولكننا لا ننفذ ولا ننقاد إلا

إذا تأكدنا أن ما يهدف إليه لن يمس أحدا بضرر.. فنجاريه وقبل أن تسأل عن معنى ما يحدث وأسباب تلك الألعاب أجيبك بأن حالة «عاطف» العقلية تشير إلى نمط نادر لا مسمى له في هذا الفرع من الطب حتى الآن.. ولم يتم تصنيفه ضمن أي مجموعة من مجموعات «العصاب» أو «الذهان» لأنه لا يشكو من أي عرض من أعراض الأمراض التابعة لأيهما ومع ذلك فهو يسقط أحيانا «صريعا» أي يقع تحت طائلة حالة من حالات الصرع لكن مراقبته أثارت قدرا كبيرا من الارتباك والبلبلة حين بدا واضحا أنه يستطيع أن يستدعى «نوبا الصرع» - أي يصنعها - ولا أقول يصطنعها فهى نوبة حقيقية - ويتحكم بها.. وهذا ينافي كل ما نعرفه عن هذا المرض، الأمر الآخر الذى يجعل من حالة عاطف حالة على هذا القدر من «الشذوذ» هو تعلقه الهستيرى بالتقمص من خلال الألعاب التى يلعبها ويفرض علينا أن نلعبها معه.. وشخصية «عاطف درويش» الثرى صاحب المزرعة المستصلحة.. أو الجنة الرابضة فى حضن الصحراء.. وهى الشخصية التى التقيت أنت بها ليست إلا واحدة يرتديها لأيام ثم ينزعها ليرتدى غيرها.. وهناك الكثير غيرها.. وهو قد فعل حين طلب منا أن نلقاك وندفعك إليه فى تقمصه الجديد؟

- تقمصه الجديد.

رددت السؤال لنفسى مشدوها.. ورحت أجيب قبل أن يفعل المعتصم..

- تريد أن تقول.. إن عاطف درويش يتخيل أنه شخص آخر؟

... هز المعتصم رأسه نافيا بحرارة: كلا وهذا هو أحد الجوانب المدهشة فى هذا النمط إنه هو نفسه عاطف درويش لا يتغير.. يتغير فقط ما يفعله.. وما يعيش فيه!

- إذن فخذانى إليه..

نهضا معا فى وقت واحد ووضعت نجاة أمامى ورقة أخرجتها من حقيبتها..

- ستذهب إليه وحدك.. هذا هو العنوان!

ثم تركانى وذهبا كان وداعهما خاليا من أى حرارة! ويبدو أن ثورتى عليهما تركت انطباعا سلبيا لم يكن من السهل إصلاحه فى نفس الليلة.

تأملت الورقة وقرأت «خان الطواشية.. بيت درويش للفنون» لم أسمع من قبل بالمكان ولا بالبيت (لماذا لم يدونا العنوان كاملا؟.. هل المكان مشهور إلى درجة لا تحتاج إلى تفاصيل).

فكرت أولا أن أرجىء البحث للنهار التالى ولكن الفضول استبد بى لدرجة كان لابد معها من العثور على مقر عاطف درويش فى نفس الليلة! وقدرت من كلمة خان الطواشية أنه لابد أن يكون فى القاهرة المملوكية ولذا يتعين على أن أتجه إلى الأزهر والجمالية حيث أرجح أن يكون هناك وبينما كنت فى طريقى تواردت إلى ذاكرتى أسماء البيوت القديمة الشهيرة.. كالمسافرخانة وبيت السحيمى وبيت السنارى وبيت الكرتلية وأندرسون وبيت قبة الغورى وغيرها من البيوت التى قرأت عنها بالصحف واستقر عندى أنها مزارات سياحية تتسم بقدر كبير من الجمال والعراقة والأهمية الأثرية والثقافية.

أما خان الطواشية فهو اسم ذلك الدرب الذى يتسع فى مسافة ليضيق فى مسافة أخرى والذى عثرت عليه بسهولة بعد أن اكتشفت - لدهشتى العارمة - أن كل سكان حى الجمالية يعرفون خان الطواشية وبيت درويش وفى صدارة ساحة تشبه ميدانا صغيرا.. قادتنى أسهم إرشادية تحمل عبارة إلى بيت درويش للفنون.. الى تلك البوابة المفتوحة التى تشبه قوس نصر على الطراز المغولى فى الهند.. وضلفتاها الضخمتان المسندتان إلى حائطين يحملان ما يشبه البرج أو المئذنة هو باب مفتوح لم يعد للإغلاق مصنوع من خشب ثقيل مزين بتشكيلات من النحاس أو الحديد تعطى لناظره إحساسا بمهابة القلاع القديمة.. والبناء كله من الحجر.. ولا أحد يحرس البوابة.. ولا أحد يسألك عن مقصدك.. برغم احساس يفعمك من أول لحظة بأن البيت مأهول يعبق بعطر الوجود الانسانى.

خطوات تعبر البوابة لتجد تلك اللافتة على الحامل.. «بيت درويش للفنون» وخطوة أخرى تسلمك إلى حديقة مشجرة تتكاثف فيها الفروع والأوراق وتحيط «بفسقية» على نفس الطراز المغولى - الهندى.. الليل يتكاثف فى الفناء.. لا تقطع ظلمته إلا بقاع من أضواء محمرة لقناديل معلقة عشوائيا فى بعض الزوايا والأركان ليبدو على ضوئها أن هناك أكثر إضاءة وتحت قنديل كبير. كان يجلس على السلم الرخامى للبيت عاطف درويش فى تقمصه الجديد.

-٩-

ندوب الزمن

كـأنه يلقـانى لأول مـرة منذ افـتـراقنا فى بكور الصـبـا.. العناق الحـار والدموع التى تترقرق فى المحاجر ولا تذرف.. والصوت المتهدج النابض بنبرات اشتياق قديم آن له أن يرتوى.. حتى إننى استسلمت للأمر وكأنه من الطبائع المألوفة!

– تعال ياصديقى نطوّف بأرجاء دارى التى لم تر لها مثيلا وأحسب أنك لم ولن تصادف ما يضاهيها.. انظر إلى طراز المبانى.. إنه المعمار الهندى – المغولى الذى لن تراه فى القاهرة كثيرا .. ربما فقط فى قصر الأمير محمد على – ولى عهد العرش قبل الثورة – ذلك الكائن على فرع النيل الصغير فى جزيرة الروضة حين تستقبل المنيل.. هو نفس الطراز.. لا تسلنى كيف وجدته وكيف استطعت أن أقتنيه فلها قصة طويلة لعبت فيها الصدفة دورا أساسياً.. والأعجب من الصدفة أن البيت لم يسجل كأثر تاريخى يحق لوزارة الثقافة أن تستأثر به وتحيله إلى متحف أو مزار ثقافى كآثار القاهرة الفاطمية والمملوكية.. لهذا سهل علىّ شراؤه!

كان قد قادنى إلى قاعة داخلية مفروشة بالطنافس والمقاعد الأرضية المكسوة بالحشايا والوسائد والنمارق حول مائدة من الأرابيسك المطعم

بالصدف تعلوها صينية من النحاس المشغول تراصت عليها أقداح من شراب الرمان.. وكنت مازلت أحاول أن استوعب وأفهم تلك النقلة الغريبة غير المبررة.. وكيف تجاهل تماما أي إشارة للقائنا القريب في «مزارع درويش» وكيف بتر اللقاء واختفى بعد أن حكى حكايته في المستشفى وحكاية «نجاة» وشقيقها الدكتور المعظم!..

– دعك من هذا .. وجرب من يدي هذه الكأس..

ناولني قدحا به شراب قال إنه عصير مجموعة من الفواكه النادرة كالكرز مع الأناناس مع جوز الهند.. وقد راقني المذاق إلى حد أن طلبت المزيد.. بإشارة من يده أنشقت إحدى الزوايا عن ساق بجلباب شرقي مطرز أترع لنا كأسينا ثم وضع «الدورق» على المائدة واختفي..

– هذا المزاج من ابتكاري..

قالها فانتهزت الفرصة:

– وماذا ابتكرت أيضا؟ .. ما رويته لي في ضيعتك بالصحراء؟.. حكاية المستشفى والمعتصم ونجاة؟

حملق بي طويلا وكأني أتحدث لغة لا يفهمها.. ثم رمقني بنظرة من يتجاوز ويعفو:

– لعلك تسألني عن كيفية عثوري بهذا البيت!

وبقدر ما استفزني تجاهله لاسئلتي غلبني فضولي..

– أهي قصة أخرى من بنات خيالك؟.

وللمرة الثانية تجاوز الاعتراض..

– البيت لم يكن غريباً بالنسبة لي.. فقد أقمت به طوال حياة كاملة! نعم! كنت هنا حين بني.. ولعلي أول من سكنه! كان ذلك فيما أعتقد على عهد الظاهر بيبرس الجاشنكير وليس البندقداري!

ولعل سمات البلاهة والحيرة الملتبسة قد صنعت بوجهي تعبيراً أضحك عاطف إلي درجة القهقهة والصخب.. ولعله - وهذا أقرب للمنطق في رأيي - راق له عبثه بأفكاري وأراد أن يظهر لي أنه يمازحني.

- كدت أصدقك!.. وتخيلت للحظة أن مساً مما اصابك في المستشفى قد ألم بك مرةً أخرى فرحت تتخيل انك عشت في نفس هذا البيت في عهد السلطان بيبرس!

- أتظن أن بي مساً من جنون؟

- لا سمح الله.. فقد أدركت الآن أن المسألة مجرد مزاح!

وهب عاطف واقفاً كمن مسه تيار صاعق من كهرباء.. وهو يهتف بصوت خشن غاضب: أنا لا أمزح .. نظرت إليه وقد راعتني تلك البروق التي لمعت في عينيه.. ولم أدر ماذا يتوجب على أن أفعل!.. هل أجري هاربا؟ أم انسحب بهدوء مراوغ لا يثير غضبه؟ أم اتعلل بأي عذر بشري ينهي هذه الليلة السوداء؟ أم الأفضل أن أسايره وألاينه حتى يهدأ وأسمع منه ما يريد أن يقول دون جدال أو معارضة؟..

وقبل أن يقر لي قرار فوجئت به يركع على ركبتيه .. وقد تلاشت اللمعة المحمومة في نظراته وتحولت عيناه إلى لؤلؤتين سوداوين تغسلهما دموع الحزن والشقاء.. وبصوت مبلل بآثار شهقات مكتومة و.. سرت الكلمات.. خفيضة راجفة تتماسك كلما توالت في جمل مترادفة:

- هل تظننا هذه الكائنات العبثية وليدة صدفة الميلاد وعشوائية الوجود؟ أنا لا أريد أبدا استدراجك لحوار بيزنطي تلتحم أطرافه في دائرة مكرورة مملة.. إنما هو سؤال أطرحه مقدمة لاعتراف يجب أن تصدقه.. ليس لأنه اعترافي وأنا أدعي لنفسي الصدق المطلق.. ولأنه «ما حدث لي».. هو ما وعته ذاكرتي التي تيقظت تلك الليلة علي سرير الجراحة في حجرة الإفاقة في

المستشفى..

- هل أجريت جراحة؟ ولم؟ وما .

قاطعنى بلهجة يسودها رجاء حازم:

- ليتك تترك لى طرف الحديث حتى افرغ من اعترافى.. أو هذيانى - إذا راق لك أن تسميه كذلك - فحتى الهذيان هو فى حقيقة أمره اعترافات صادرة عن العقل الباطن قد لا يربطها منطق.. ولكنها تستند إلى أصل من حقائق مؤكدة.. مثلما يحدث فى هذيان المحموم والمسطول والسكران! تعرف انهم «هناك» خلف الأسوار كانوا يجرون علينا أى فحوص طبية يتطلبها التحقيق فى أى ادعاء أو انكار أى اتهام.. وحين انتابنى ذلك الصداع الفظيع الذى سهد ليلى وحولنى علي مدار اليوم إلى كائن لا يتنفس إلا صراخا وضعونى تحت أجهزتهم الفاحصة وبعضها ما يسمونه أشعة مقطعية للمخ.. وفيها اكتشفوا أن هناك ورماً لابد من استئصاله.. وبالفعل تقرر أن تجرى لى جراحة عاجلة استمرت لساعات طويلة.. تركونى بعدها فى غرفة الإفاقة لأستعيد وعيى وهناك.. حدثت الإفاقة كاملة.. واستيقظت كل الحواس والمدارك من سبات طويل قدر على البشر جميعا - ولم ينجح من إساره لحكمة إلهية - إلا النادر القليل ... وهؤلاء هم الذين يمكنهم أن يستردوا ذاكرة الزمن الكلية! لا تحملق فى وجهى هكذا أو اصبر معى! واسأل نفسك: لماذا نصدق ظواهر الادراك فائق الحس أو ما نسميه فى علوم «السايكك» و«الباراسيكولوجى» بالحواس الاستثنائية مثل التخاطر «التليباثى» و«الجلاء البصرى» والحاسة السادسة ولا نصدق أن هناك بشرا استثنائيين يمكنهم تذكر حيواتهم السابقة؟.. لقد أثبت العلم أخيراً أن هذا ممكن.. وأنا الدليل.. وإن كنت لم أشعر بهذه الحاسة إلا بعد جراحة المخ التى مررت بها وخرجت منها وكأننى ابن ذلك الأمس الذى كان في زمنه

القاضى.. اسمع، غداً سأجمعك باثنين سيحسمان لديك الشك فى جنونى.. أولهما الجراح الذى أجرى لى الجراحة وتابع إفاقتى واختبر أدائى العضوى والعصبى بعدها وسيذهلك حديثه الذى لن أرويه لك الآن وسأتركك تسمعه منه بنفسك وتسأله عما يعن لك أو يرد لخاطرك! أما الثانى فرجل يعمل فى سفارة الهند بالقاهرة وكان دليلى فى رحلتى إلى الهند التى التقيت فيها ببعض الكهنة البراهمة.. واتباع «راما - كريشنا» والبانشن لاما نفسه ثانى أكبر الكهنة البوذيين.. ما رأيك.. هل تعدنى؟

- بأى شىء تريدنى أن أعدك ياعاطف؟!

بأن تفتح قلبك وعقلك.. ولا تقاوم.. اترك ضفافك لما قد يرسو عليها من أمواج! سيحدثك البراهمى القديم عن «رقاق الزمن» وستسمع منه حديث بوذا عن «ندوب الزمن».. وستعلم أن الحياة تتوالي في حركة دائرية لا أطراف لها.. وأنها تتكرر فى تقمصات ينسخ جديدها قديمها بأن يمحوه من الذاكرة فلا يترك منه إلا بعض أثر يشبه ما يتبقى من جرح مندمل وقد تشعر بتلك الندوب ويمكنك أحيانا أن تتلمسها فى حنين إلى مكان لم تطأه قدماك - وفقا لذاكرتك الناسخة - أو يقين غامر ينتابك بأنك قد رأيت قبل «الآن» شخصا يقدمونه لك لأول مرة.. بل يمكنك أحيانا أن تصف لبعض أصدقائك أو أهلك مكاناً فى بلد يعلم جميعهم علم اليقين أنك لم تزره..

قلت لنفسى وهو مازال يتحدث «موضوع التناسخ مرة أخرى!» وشردت أفكارى مع كثير مما قرأته فى الموضوع.. وأفقت من شرودى على عاطف درويش وقد وصل فى خبله إلي مفصل مذهل:

- تذكرت حياتى يوم كان اسمى ثاقب بن زهر الدين الحموى.. التاجر الوافد من بر الشام والذى استقر فى المحروسة لتزدهر تجارته ويطير صيته وتتضخم ثروته! حتى يصبح «شاهبندر» تجار الحرير ويتزوج من مصرية

صعيدية اشترى لها هذا البيت الفريد فى درب «الطواشية»! وتذكرت كيف تقرب إلى فرسان المماليك: ثم اتخذونى صديقاً حتى تورطت فى نزاع نشب بين أقـــربهم منى.. وكـــان من البكوات ذوى الأصل الأرناؤودى.. وبين الجاشنكير نفسه الذى شن - بليل - حملة تنكيل صاعقة يستأصل بها شأفة غريمة وكل من حسب من رجاله!

كان عاطف يرتعد.. ويتفصد جبينه عرقاً.. وتنهمر الدموع من عينيه..

- مازلت أذكر خيول الجاشنكير تقتحم ساحة المنزل.. وفرسانه يلقون بالكرات المشتعلة في كل مكان.. ومازلت أذكر الحريق.. وصرخات الحريم .. وبكاء الأطفال.. والألم المبرح الذى يمزق لحم جسدى وهم يسحلوننى فى الدرب ويملأون جروحى بالتراب والرمال وفضلات الخيل..

.. أذكر جسدى ملقى فى درب مهجور فى سفح المقطم.. وأصوات النسور تقترب.. والشمس تغرب..

- أتعرف ياصديقى.. أظننى مت يومها.. لأن ما بعده.. كان شيئاً آخر.

- ١٠ -

اليقين

جن الليل وأمعن في حلكته حتي لتبدو تلك المربعات الماثلة من نوافذ القاعة المطلة على الحديقة مجرد عمق مبهم للامرئيات ويتأرجح الوعي بين اغفاءات الوسن المخطوف وإفاقات الخدر القهرى.. التى تبدو كومضات باهرة الاضاءة رأيت من خلالها وجه عاطف درويش مستندا الى وسادة ملقاة بجانبه وقد أغمض عينيه وانتظمت أنفاسه وتخايلت على وجهه ابتسامة مراوغة تعلوها تقطيبة مناقضة بين الحاجبين وكان السكون سابغا!. إلا من نقيق بعيد للضفادع في الحديقة تصحبه صرات الحشرات الليلية.. حتي أصوات الدرب القريب خمدت تماما او ربما غشى السمع كما يغشى البصر.. وقد أدهشنى أن أسمع ماسمعت ومضت برهة طويلة قبل أن أفطن إلى أن الصوت يصدر من داخلى ..

- يتراكم الزمن رقا فوق رق ثم تتلاصق الرقاق حتى تتحد ويستحيل فصلها او إعادة ترتيبها والمفترض طبقا لهذا القانون ان عاطف درويش المستلقى الآن أمامى مستغرقا فى سبات هو نفسه ثاقب بن زهر الدين الحموى شهبندر تجار الحرير فى المحروسة على زمن الامير المملوكى ظاهر الدين بيبرس الجاشنكير.. ولكن ماهو نصيب هذا الافتراض من

الحقيقة ؟ ألا تكون الرواية كلها مجرد تهويمات خيال خصب هو نفسه الذى ابتدع قصة نجاة والمعتصم ومؤامرة المستشفى ؟

لم أشعر بقدرتى على التفكير في الاسئلة المتراقصة فى ذهنى وأنا على أعتاب السقوط فى هوة النوم.. وقررت أن أنفض عن نفسى مأأصابنى من وهن السكر .

فلا ريب ان ماسقانى عاطف لايمت بصلة الى البراءة وهو فى الاغلب مزيج من شراب حلال على بعض من الخمر ولم يصارحنى بالامر حتى لا أقاوم وأستسلم لتلك الحالة من سيولة الارادة فانتفضت قائما على قدمى.. أو هكذا انتويت .. لأنى لم أعرف حتى الآن كيف انتقلت من القاعة الشرقية الواسعة الى تلك الحجرة الغريبة فائقة الجمال التى اشرقت على فيها شمس الصباح التالى ولم استطع مع لحظات اليقظة الأولى أن أتوازن أو ادرك حقيقة المكان حولى كما راوغتنى الذاكرة فلم تواتنى إلا بعد لأي ! .. حجرة نوم فى حديقة !! فنصف الحجرة داخل جدران البيت ونصفها الاخر يبرز فى جزء من الحديقة تطل نافذته العريضة على تلك الايكة الوارفة الممتدة فروعها لتغطى سقف الحجرة الناتىء خارج البيت ويبدو متكئا على جذعها .. وحوض الزهور المائية الذى تتوسطه نافورة صغيرة واهنة الاندفاع يتساقط ماؤها رقيقا لا تكاد دوائره ترسم اثرها على المياه وتنداح خافقة تهتز لها تلك الوريقات «لياسنت الماء» المنتشرة على سطحه.. كان المنظر أشبه بلوحات الطبيعة الصامتة تلك التى شاع نسخها لتعلق على جدران البيوت فى استخدام ساذج للفن الفج المسطح .. أو تلك التى نراها على اقمشة الجوبلان.. و «الاوبيسون» ونسميها باقات روميو وجولييت ، وتمثل نساء تستحم على شاطىء غدير .. وعشاق بسمت عصور الفروسية القديمة.. وهناك فى بعض الاحيان من يعزف

الجيتار ويغنى لفتاته فى الشرفة.. وقد كان ما رأيته حولى ذلك الصباح لوحة مشابهة تنقصها الحوريات والعشاق وسائر البشر.. كان هناك فقط عصافير تشرب من حوض النافورة ثم تطير.. وعلى خزانة ملابس خشبية مشغولة بنمنمات الارابيسك كانت هناك مرآة طالعتنى بوجه شاحب وعينين ذابلتين .. وفطنت لوجودي فى سرير وثير مرتديا فقط ثيابى وغطائى بهذا المفرش الصيفى الانيق؟.. ولم تطل بى الحيرة اذا سمعت دقات رقيقة على الباب .. وحين تكررت هتفت متوجسا ..

- ادخل ..

ومن الباب دلف ساق يحمل صينية طعام... كانت ثيابه الشرقية ذات الطابع الهندى خاصة تلك العمامة التي تشبه عمامة السيخ تشير الى مظهر «خدم» الفنادق الكبرى.. وأكدت هذا الانطباع حركاته الاحترافية فى تقديم الطعام التى كادت أن تنطقنى رغم أنفى بسؤال عن طبيعة وجودى هنا.. ولكنى سألت سؤالا اخر ..

- هل استيقظ عاطف بك ؟

كانت دقات قلبى تتسارع فى انتظار الإجابة او ردة الفعل.. وقد جاءت بعد ابتسامة مهنية مهذبة ..

- أخبار عاطف بك لا يعرفها الا موظفو السكرتارية .. وسأبلغ ليأتيك منهم من يجيب عن اسئلتك لو أردت .. بعد أن تتناول الفطور.. شهية طيبة يا سيدى ! ..

تركنى الساقى وقد ارتبكت حواسى .. أى سكرتارية ؟ وما وجه الحاجة لموظفى السكرتارية فى بيت كهذا.. وماهى حكاية الخدمة الفندقية هذه ؟ ساق بزي خاص فى الليل .. وخادم بزى آخر فى الصباح ؟ .. وأى علاقة لغرف النوم بالحديقة والنافورة ؟ وفى أى موقع من البيت أكون أنا الآن ؟

تناولت فطورى على عجل .. ونهضت لارتدى كامل ثيابى . وبينما كنت أصفف شعرى امام المرآة .. سمعت دقات أخرى علي الباب .. وحين هتفت داعيا .. الطارق للدخول انفرج الباب البلوطى القديم عن رأس خادم آخر يبتسم ويلقى تحية الصباح ثم ينبهنى مع الاعتذارات الواجبة. لوجود الحمام الخاص مقابل الغرفة عبر الردهة..مشيرا إلى أن المناشف موجودة هناك ! ولكنه وكسابقه لم يدهش لكونى بملابسى ولم ينسنى أحدهما لأى شيء يشير إلى حل للابس النوم غير الموجودة ! ولكن المسألة تم تفسيرها حين ولجت ذلك الحمام المذهل فى فخامته والذى تغطى سقفه وجدرانه وارضيته بالجرانيت الوردى وانتمت كل مرافقة ومفردات الاستعمال فيه لارقى الانواع ذات الشهرة .. وعلي خوان عريض يحتوى حوض الاغتسال صفت أغلى واشهر أنواع العطور وبجوارها علقت المناشف.. ومعها «منامة» حريرية مغلفة لم تستعمل !..

هو خطأ الخادم المناوب الذى تولى نقل حضرتك الى غرفة نومك في المساء .. كان يجب أن يجهز لك المنامة ويساعدك على ارتدائها.. ونحن نعتذر ونؤكد انه سيعاقب !

.. كانت تلك كلمات هذه الغادة باهرة الحسن التى لقيتني فى صالون أنيق تنتهى إليه الردهة التى بها غرفة النوم وقدمت نفسها إلى باسم هالة رئيسة السكرتارية الخاصة بعاطف بك درويش صاحب المؤسسة ..

صاحب المؤسسه اى مؤسسة ؟!

بدأت فى نور النهار ألاحظ ما لم يتح لى في الليل .. هناك مطبوعات وملصقات كالتى رأيتها فى الصالون أو فى مكاتب السكرتارية تشير كلها إلى مؤسسة درويش لرعاية الفنون بيت

الطواشيه .. الجمالية هكذا كان الاسم أو العنوان الرسمى المطبوع! واستطعت أن أعرف ايضا اننى حين دخلت البيت بالامس نزلت جناح الضيافة الخاص بعاطف بك .. والذى لاتمنح الاقامة فيه الا لضيوف استثنائيين من صفوة أصدقاء الرجل ..

أما نبرة الاحترام والانبهار التى تشيع فى الاجواء بمجرد ذكر عاطف بك فقد كانت أمرا مربكا للغاية اسلمنى لسوال عن حقيقة عاطف بك وهل هو نفسه صديقى القديم ؟.. إلى هذا الحد بلغ بى الاضطراب والشك فانتابتنى رغبة ملحة عارمة للالتقاء به أريد أن أرى عاطف بك على الفور .. ! .

وكان رد فعل هالة طبيعيا .. وبدت كأنها قد تعودت سماع هذا الطلب من ضيوف مخدومها .. فبدت إجابتها ايضا كأنها إجابة مقولبة ومكررة: عاطف بك .. مشغول قليلا مع ضيوف من فرنسا لابد وأن يسافروا اليوم وسيخرجوا من عنده الى المطار مباشرة وحتى هذا الحين فسوف تسعد باصطحابى فى جولة بأرجاء البيت .. المؤسسة !

وقد خرجنا من جناح الإدارة الملاصق لجناح الضيافة إلى ممر حجرى تزين جوانبه اشكال مرسومه بالفسيفساء .ويمتد عبر الحديقة إلى القسم الأكبر من بيت الطواشيه ، والذى تتصدره بوابة أخرى عظيمة الحجم تقود الى جناحين آخرين متقابلين بنيت ادوارهما على نظام البواكى.. والشرفات المغطاة .. والمشربيات المطلة على صحن الدار.. وأحد الجناحين كما قرأت على اللافتة وقبل أن تبادر هالة بالشرح عن الورشة .. التى هى فى واقع الأمر مجمع لورش صغيرة يعمل بها مجموعة كبيرة من الصبية والشبان يقوم بتدريبهم .. أسطوات كبار على الصناعات الحرفية اليدوية بالغة الدقة كتعشيق الخشب والصدف.. وحفر الرخام ... وسبك المعادن المستخدمة فى

مشغولات الارابيسك وبدا واضحا انها لم تكن ورشا للانتاج وتعليم الحرفة. فقط بل كان هدفها الاساسى . كما شرح لى الاسطوات بتأكيد كامل من هالة هو اعادة احياء الحرف المهددة بالاندثار وتربية أجيال من الصناع المهرة مما يقرب .. الورشة .. الى وضع المدرسة ..!

– هذه الورشة رصد لها عاطف بك مايشبه الوديعة الدائمة. بديلة عن نظام الوقف القديم .. تخيّل كم ؟

– ولم لا تصارحينى وتعفينى من مشقة التخيل ؟

أجابتنى مبتسمة وهى تعبر بى الى الجناح المقابل

– خمسون مليونا من الجنيهات !! .

شهقت ذهولا اكاد لا اصدق .. ولكنى تحاشيت أن أبدو جافى الذوق والسلوك اذا أبديت ماخالجنى .. وكنا قد وصلنا الى جناح لم توضع له لافتات .. وامتلأ باقواس تحل محل الابواب .. مجرد أقواس مفتوحة لحجرات متجاورة .. يتناثر فيها هنا .. وهناك .. رجال.. ونساء .. من أعمار مختلفة .. يشتركون جميعا فى الاهتمام بالفنون التشكيلية : حوامل اللوحات وتحمل كلها اعمالا غير كاملة .. وباليتات .. وأنابيب وأقلام وفرش ألوان.. وكتل من الصلصال ومواد النحت .. وسكاكين .. وأزاميل .. وفنانون .. ولم يكن هناك ما يدعو للالتباس أو الغموض ولم أجد سؤالا يحيرنى فى الامر حين جاء رسول من لدى صاحبى يدعونى للقاء «عاطف بك» على طعام الغداء .. وذهبت لأجد فى انتظارى مفاجأة مطابقة لما حدث فى مزرعة درويش ذلك النهار ..

-١١-

غفوة السندباد

حين قالوا لى إن عاطف بك قد اضطرته ظروف طارئة الي سفر سريع لم تعلن وجهته وأنه يرجو لى غداء شهيا مع «هالة» وباقى الاصدقاء أحسست باهانة مريرة تحولت الى غضب طفولي أعلنت بموجبه اننى سأغادر وأترك المكان كله غير آسف عليه.. وطلبت من هالة ورقا وقلما لأكتب رسالة الى مضيفى ! ضحكت وهى تلقى الى بتلك النظرة التى ابتردت لها اطرافى وتسارع إليها نبضى .وتهمس .. «اجعلها رسالة شفهية أنقلها أنا إليه» .. هل أقول إنها جردتنى فى لحظة من كل مشاعر الغضب التى اجتاحت مشاعرى تلك الظهيرة ..؟ ..

فى ظل تكعيبة الياسمين امتدت ساعات عبر فيها الكلام أنهارا ووديانا ومدنا مسحورة ! لا أذكر ماذا قلت .. ولا أذكر ما سمعت .. ولم تكن هالة وحدها معى.. فأنا الملم فى ذاكرتى أطرافا من ملامح كثيرة لبعض ساكنى البيت.. خاصة ذلك الذى صلعت رأسه حتى ثلثها الاخير والذي غزر شعره وتهدل مشعثا علي كتفيه.. وغطى شاربه التترى جانبى فمه وقيل لى فيما قيل انه مصور تشكيلى عبقرى وأنه قدم حديثا من جولات طاف فيها بعدة بلاد أوروبية مصطحبا لوحاته ! تذكرته أكثر من الآخرين لأنه تكفل بى فى نهاية المطاف واصطحبنى إلى حيث غسلت رأسي وأخرجت ما فى معدتى

وافقت تماما ..

-- لماذا تشرب وأنت لا تحتمل الشراب ؟ ..

بل احتمله ! فقط اشكو من برد فى معدتى

-- تحتاج الى استنشاق هواء نقى .. تعال معى

- انتظر حتى ادعو هالة ..

- دعك من هالة ! فقد انتهت منك وهى الآن منهمكة فى عملها.

كانت لهجته الجادة حاسمة وقاطعة بحيث صادرت على كل ما يمكن أن يدور في ذهنى من اسئلة تتعلق بهذه الفتاة المضيفة الساحرة التى تبدو وكأنها معدة خصيصا كانموذج يجب أن تكون عليه مواصفات فتاة العلاقات العامة ! لكن غمزتها بركن عينها لى حين اقترحت ان تكون رسالتى الغاضبة لعاطف شفاهة .. والكم من الوعود وأحلام اليقظة التى ساورتنى وأنا جالس اليها أحدثها عن الماضى السحيق ، وعلاقتى القديمة بعاطف درويش وانقطاع السبل بيننا ثم ظهوره المفاجىء فى حياتى ودعوته لى لزيارته فى مزارع درويش بصحراء النوبارية ثم اختفائه اللغز وما تلاه حتى ليلة البارحة .. ولا أعرف متى على وجه التحديد انقطع خيط حديثى معها.. فقد تقاطروا واحدا إثر الاخر على موعد الغداء.. لكنى مابرحت أفكر فى أخر ماقالته قبلها .

-- لست وحدك ! فكل من عرفهم من أصدقاء يدخل حياتهم بالطريقة نفسها.. ويثير لديهم نفس ما آثار لديك من مشاعر .. متناقضة غاضبة !.

ولكنه هكذا .. تلك طبيعته .وجاذبيته .. من تكونين بالنسبة له؟.. مجرد موظفة فى فندقه الغريب .. أم صديقة تعمل معه ؟ .. أم خليلة يصطفيها وتقنع بالقرب منه فلا تطمح لاكثر ؟ أسئلة لم ألقها على مسامعها ولكنى رحت أسترجعها واكتشف انها تزعجنى وتؤرقنى وأنا جالس مع الرسام العبقرى .. على سطح دار عتيقة في شارع يتاخم مسجد السلطان حسن ..

تعريشة فى الهواء الطلق حيث لايجاور البيت آى بيوت أخرى ويبدو من خارجه مائلا كبرج بيزا حتي لتهرع مبتعدا عنه خوفا من انهياره

كان هناك براد شاى من الصاج المملوء تغلى فيه المياه بشكل دائم ومستمر.. وكلما نقصت زودها «الشاهبور» بمياه جديدة .وهو يصب الماء المغلى على مسحوق الشاى المخلوط بنبات غريب .. يقول إنه لا ينبت إلا على سواحل بحر قزوين فى إيران .. لتحتسى بعدها أروع شاى يمكنك أن تتذوقه في حياتك ! ..

«شاهبور» نفسه متعه لا تبارى ! أدمنته خلال ساعتين قضيتهما معه انا والرسام نستمع اليه ونشرب «شايه» لاتستطيع بداية أن تعطيه سنا.. فقد تقول إنه فى الستين .. ثم تقسم بعد قليل انه لم يتخط الاربعين .. لكنك لن تلوم من يؤكد لك أن الرجل بلغ عقدة الثامن.. وأن حاله من حال مواطنيه من أذربيجان الايرانية.. وكلهم معمرون مخادعون لايفشى مظهرهم حقيقة أعمارهم .

وهو شيوعي قديم .. كان عضوا فى حزب «توده» وشهد معركة الدكتور محمد مصدق مع الشاه محمد رضا ومع البريطانيين حين أمم شركة البترول الانجليزية وكيف قاتل مع أنصار مصدق وحليفه آية الله الكشانى. فى الشوارع حتى سقط مصدق ونجح الانقلاب الامريكى فى إعادة محمد رضا الى عرش الطاووس ثم كيف أجريت المذابح لانصار مصدق وأعضاء حزب توده وجرت الدماء أنهارا فى شوارع طهران.. وحكى مغامرته الاسطورية حين هرب عبر قزوين والقوقاز الروسي ثم الى الاورال وأوروبا وعاش مشردا لسنوات بعد أن غضب عليه الشيوعيون فى ألمانيا الشرقية وأمر «فالتر اولبريخت» شخصيا بتصفيته ولكنه هرب إلى اسبانيا ومنها إلى المغرب ثم قام برحلة المتصوفة المغاربة القدامى شرقا الى مكة ثم عرج على مصر وبقى فيها ..

يضحك شاهبور مقهقها وهو يقول إنه شيوعى شيعى في بلد السنة «الحق اننى لم أنعم باستقرار مثل الذى نعمت به هنا .. حتى وأنا أعيش على مرمى حجر من قبر محمد رضا وأبيه.. وحتى بعد أن استضافتنى مباحث أمن الدولة شهورا على أيام السادات بعد قيام ثورة الخومينى ! ..

مازحته قائلا :

– أنت لا تكف عن ذكر أنك شيوعى :.. فهل بقى هناك شيوعيون يا عم شهبور ؟ ..

نظر الى طويلا وكف عن الضحك وغامت عيناه بنظرة قاتمة..

اسمى ليس شهبور ياصاحبى ! .. اسمى الحقيقى ميرزا عبد الرضا .. وأنا معك ! لم يعد هناك شيوعيون ولا رأسماليون ..

ولاتروتسكيون ولاماركسيون ..لينينيون .ولا وجوديون .. ولا هيجليون .. ولا ديكارتيون ..

الفلسفة ماتت. وكل الايديولوجيات ماتت.. الإنسان هو الذى مات وليذهب نيتشه الى حيث ألقت

– ولكن هناك جارودى .. وفوكوياما .. و

– قاطعنى ثائرا ..

– لا تحدثنى عن أفكار .. سئمت الافكار والمفكرين .. لقد أتيتما لتشربا الشاى لا لتصدعا رأسى .. وإذا أردتما البقاء فلنتحدث عن النساء والشعر والموسيقى ..

وانطلق شيطان عربيد من داخل ميرزا.. «راح يغنى بصوت مبحوح ولكنه جميل ومعبر .. ولم افهم ما يقول وظننت أنه يغنى بالفارسية .. لكن رسامى العبقرى همس لى بأنها أغنية اوزبكية ..

ووافقته فقد كان اللحن قريبا من لحن أوزبكى يغنيه الاطفال وتردد

زمنا فى إذاعاتنا فى بداية انتعاش العلاقة مع المعسكر الشرقى فى أواخر الخمسينيات (كان اللحن تقريبا عن فلاحة اوزبكية تغنى لدجاجاتها) ..

- أنت عجوز إذن ؟ ..

هتف الرجل بدهشة يخالطها ظل من الاستنكار.. وتوقعت ان يكمل «كنت أظنك شابا» ولكنه صرف نظر فيما يبدو كما صرفتنى الافكار بعيدا عن غناء ميرزا . وأعادتنى إلى ذكريات طفولتى مع عاطف .. ثم قفزت الي ذهنى ثانية وبالحاح عارم تلك الاسئلة عن هالة .. (ما الذى يدفعنى للتفكير في هذه الفتاة بهذا الالحاح؟ .. لايمكن ان يكون الأمر راجعا الى غمزة واعدة واحتمالات في حنايا الصوت تشير الى لقاءات حميمة واهمة ! لاشك ان للفتاة هذا الحضور الانثوى اللافح الذى لا تستطيع ان تتجاهله فهو ينشب فى صدرك مخالبه لاول وهلة فلا يمكنك ان تنساه بسهولة ؟ فضلا عن ان تتخلص منه فور ابتعادك عنه ! أيقظنى الرسام لاكتشف أننى غفوت بالفعل ومالت رأسى على كتفى فاستندت بكاملى إلى الجدار «البغدادلى» المسور للسطح!.. ومازحنى بأن جدران المنزل لم تعد تتحمل أن ترتكز عليها أجساد سكانه ! .. وكان ميرزا يغنى بلغته التي لا أفهمها ..

- ألن نذهب للقاء عاطف ! ..

ألقيت السؤال فرمقنى صاحبى بنظرة ساهمة حزينة وكأنه يرثى لي ..

- أما زلت تريد لقاءه ؟ ..

- ولم لا وقد جئت الى هذا المكان أصلا ضيفا عليه ؟

- إذن فعليك أن تنتظر حلوله الجديد !

حلوله الجديد ؟ عن أى حلول يتكلم هذا الرجل ؟ ..

سألته ولم يجب .. سرنا جنبا الى جنب فى صمت وبعد مسافة تباعدنا .. ولم تمض ساعة حتى وجدتنى وحدى أخطو الى الدرب القديم .. وأعبر ثانية بوابة البيت العتيدة .. بيت الطواشيه!.

وهناك .. كان الليل سابغا .. والسكون مطبقا .. والانوار مطفأة .
رجت على الممرات الحجرية .. وبحثت عن الحديقة والبركة.
وحين أمعنت فى قلب المكان .. ميزت أصواتا بعيدة .. تأتى عبر هبات النسائم الليلية .. لعلها أصوات غناء موسيقى .. فلتهدنى الاصوات الى الحقيقة .. تلك الماسة الفريدة التي تتألق فى رحم مجهول آت .

-١٢-

فى بطن الحوت

ترى .. كم مضى على السندباد من وقت قبل أن يفطن إلى أن ما تخطو عليه أقدامه ليس أديم الأرض فى جزيرة من الجزر التى يرتادها ، والتى تحطمت سفينة رحلته الأخيرة على شاطىء إحداها ؟ .. يوم .. أم شهر .. أم حول كامل بعده أحس بالزلزال واكتشف انه على ظهر أضخم الحيتان الرابضة فى بحر الظلمات ؟

سؤال نبت فى قلب الظلمة الساجية حوله ، وهو يخطو على غير هدى فى الدروب الحجرية لذلك البيت العتيق .. ولم يمض وقت طويل حتى عرف أن الاضواء التى ومضت فى عينيه وأصوات القصف والغناء التى تناهت إلى أذنيه ليست إلا سرابا يراوغه فى المتاهة ! فكلما أمعن فى السير ابتعدت الأضواء والأصوات .. وإذ توقف مستجمعا أنفاسه اقتربتا من عينيه وأذنيه حتى ليكاد يوقن أنهما على بعد خطوة فإذا خطاها لم يجد إلا المزيد من الدروب المارقة فى لجة بحر ليلى أخرس بلا موج ولا أنواء !

أحس بأنفاسه تتلاحق وبقطرات العرق تنسال على صدره .. وتتصل خيطا على امتداد عموده الفقرى فى ظهره فعن له أن يستريح ومد ذراعيه يبحث عن جدار أو متكأ .. لكنهما صادفا الفراغ .. لم تكن هناك جدران ولا أبواب ولا سقف للسرداب ..

«من أين يتسرب الرعب ؟» .. سؤال خطر على هامش الوعى ولكنه كان

حذرا فراغ منه (إن للبيت نهاية ! أليس كذلك؟) إذا فلابد أن يصل إلى شيء .. هناك الفندق والحجرات .. وهناك في الجناح الآخر مساكن* للرسامين والنحاتين .. وهنا تذكر رفيق رحلة النهار .. دليله إلى سقيفة «ميرزا الإيراني الذي لعله لم يزل يغني أغانيه الأوزبكية الغريبة حتى الآن .. وساوره في الحال تساؤل عما إذا كان قد بقي هناك .. هو نفسه .. لعله لم يغادر السقيفة للآن .. ولعل ما فعله مجرد حركة متوهمة في خيال صنعته أبخرة المخدر .. لعل صاحبه الرسام قد تآمر مع ميرزا على أن يسكراه أو يخدراه .. فهذا هو المعنى الوحيد الذي يكمن في أحبولة الساعات الأخيرة !

قال لنفسه : نعم ! أنني لست هنا ! وأغلب الظن أنني «هناك» ! وأن ما أغرق فيه الآن هو غفوة ثقيلة كالرمال الناعمة والأرض الرخوة .. كلما حاولت الخروج منها ازددت غوصا .. نعم .. كل شيء تحت قدميه رخو وكلما خطا ازداد غوصا !

وعلى ذلك .. فلماذا لا يحاول أن يفيق من غفوته ؟ .. إن السكوت عليها والاستسلام لسلطانها هو عين الحمق والغباء وما عليه الآن إلا أن ينتفض موقظا لنفسه ..

«هيا أفعل» .. صدر الأمر ولكنه حار في فهم مصدره .. ربما كان هو نفسه .. وربما كان مجرد «هاتف» من الهواتف التي تسبح في الاثير محمومة تعرض خدماتها على كل من يحزبه الأمر أو يشق عليه الفهم ! .. «هيا أفعل» ولابد له أخيرا أن يصدع بما يؤمر !

أغمض عينيه فلم يرفارقا إلا تلك البقع غير المنتظمة التي تسبح بدورها في ظلمة عينيه وبشر نفسه بأنه حين يفتح جفنيه ستتم يقظته ويرى مفردات المشهد الأخير .. الرسام .. مقعى بجوار ميرزا الايراني .. بجوار «بكرج» الصاج مليء بذلك الشاي المدهش ذي النكهة التي يختلط فيها أريج الياسمين بشذي زهور الليمون .. لكنها أشباح لم تعاوده ثانية وكان فاجأه

حين فتح عينيه تلك الزرقة الشفافة لسنا القمر المطل فوق بركة الصباح ! أتراه قد عاد إلى حجرته بالفندق ؟ .. لابد .. فهو يحس بطراوة الفراش .. ويرى فى ذبالة شمعة محتضرة على الخوان بجواره معالم الاشياء حوله .. المشجب .. والصوان .. وباب الحجرة .. ثم فغمت أنفه تلك الرائحة .. التى ظل يتشمم رفيفها طوال النهار على غير طائل .. هالة؟ .. هتف بفرحة طفل أيقظوه ذات صباح ففتح عينيه على وجه أمه التى غابت عنه ردحا طويلا من الزمن أو لعلها عادت بمعجزة ما من غيبة الأبدية ! .. لم تكن هالة أمه ولكنها أوحت إليه بيقين استقر فى حناياه راسخا لا يبرح .. (أنا قدرك المرصود باسمك فى سجل الغيب ولا فرار) .. وتقول ابتسامتها المطلة على عينيه تحتويهما أن ما يفكر فيه ليس إلا بعضا من الكتاب التى رويت فيه حكايات الفردوس الموعود !

– أأنت هنا حقا ؟!

– وأين تظننى أكون ؟

– بحثت عنك طوال النهار ولكنك اختفيت بعد جلسة الظهيرة .. وصحبنى ذلك الرسام الذى كان يجلس إلى جوارى وذهبنا إلى سقيفة منزل يجاور القلعة ! .. والتقينا بميرزا الإيرانى ! – دعك من حكايات النهار ! فما مضى تلاشى .. ونحن الآن نشهد فجرا يشق الحجاب آتيا بنهار آخر .. لن أتركك فيه لحظة ..

حنت عليه وتدلت خصلة من شعرها المضمخ بعطر آخر أدار رأسه ودغدغ حواسه فمد يده ليتشبث به .. وأحس بملمس حبات كرز على جبينه .. وبوريقات ورد مخملى تلثم خده .. وتتعطر دفقات من عسل .. تنحدر إلى مخنق الدمع فى الحلق .. ثم تسيل من الشدقين إلى العنق .. إلى الوسادة ! وفى غفوة وسنانة تبدى له عاطف درويش فى إطلاله سريعة .. يبتسم مرحبا وهو يسر إليه قرب أذنه :

– هل عرفت الآن ما هى الجنة ؟

وطفت على سطح الوعى المخدر تهاويم عن أمر يصدره المضيف إلى ضيفه ويطالبه أن يعلن الولاء ويقسم يمين الطاعة وإلا طرده من جنته ! ورأى فيما يرى النائم أنه فى قلعة «الموت» يتناول من يد الشيخ الأعظم «حسن الصباح» جرعة معجونة بما زرعه فى الوادى المحيط من نبات «القنب الهندى» .. ثم يقف مع عشرات من جنود الشيخ من الحشاشين على شفة الجرف ليقفزوا إلى الجنة !

أفاق على هزة من أناملها اللدنة .. وصوتها يأتيه مشبعا بندى الصباح ..

- هيا فقد حان موعدك !

- أى موعد ؟

هتف وهو ينتفض مذعورا ..

هشت له مندهشة : لقد انتظرت طويلا لكى يعاود اللقاء ..

- من تعنين ؟ عاطف درويش ؟

- وهل تنتظر غيره ؟ .. حملق فيها مليا يسألها بصوت بحت حروفه .. «أهو هنا» نظرت فى ساعة يدها .. ثم أجابته بلهجة تقريرية تنتمى إلى وظيفتها النهارية ..

- ستتناول إفطارك الآن .. ثم تأخذ حمامك وترتدى ملابسك .. وتوافينى عند ردهة الاستقبال .. أتكفيك ساعة ؟

- تكفينى ولكن ماذا يحدث بعد أن أوافيك فى ردهة الاستقبال ؟ .. أتأخذينى إليه ؟ بعدها سنمضى إلى المطار ونسافر إليه ..

أى جنون هذا ؟ وأى سفر تتحدث عنه ؟ تقول أنه فى مكان لابد من ركوب طائرة للذهاب إليه ! متى سافر إلى هذا المكان .. وماذا يفعل فيه ؟ أنها تهرب من الإجابة على أى سؤال ولا تريد أن تفصح عن ذلك البلد الذى سنسافر إليه .. تقول بابتسامة مبهجة «هو يريد أن يفاجئك» .. لكنى لابد وأن أعرف حين تصل إلى المطار .. بنفس الابتسامة التى كرهتها وكرهت

«هالة» النهار بقدر ما شغفت ولعا «بهالة الليل» أفسدت انتصارى حين أكدت لى أننا سنطلع بطائرة خاصة لن تتيح لى أن أعرف مقصدها إلا بعد الوصول .. وأظننى قد بدوت ثائرا ناقما ولعلى أغلظت لها فى القول ، وأن ألقى عليها تلك المطولة العصماء فى سخافة ما تفعله وما يفعله مخدومها ، وفى ضرورة احترام عقل ومشاعر الآخرين والكف عن العبث بها ثم أعلنت لها رفضى الانسياق إلى نزوات السيد «عاطف درويش» الذى أرى أنه يعاملنى بطريقة لا يمكن قبولها .. وأخبرتها بعد هذا كله أنهم فى غمار لهوهم وعبثهم قد نسوا أهم ما فى الموضوع .. وهو جواز سفرى .. الذى كان يجب أن يطلبوه منى أولا ليخرجوا عليه تأشيرة الدخول إلى البلد «اللغز» ..

لكن هالة واصلت سلسلة ابتساماتها المستفزة لهذا اليوم .. وفتحت حقيبتها لتخرج منها جواز السفر الأخضر : لا تقلق .. فقد تولينا الأمر .. واستخرجنا لك جوازا جديدا وعليه التأشيرات اللازمة .. والآن .. استعد من فضلك ..

استدارت لتذهب فهتفت فى إثرها غاضبا ..

– لن أسافر وافعلى ما بدالك ؟

استدارت نحوى .. وبراءة الدهشة تغمر وجهها ..

– لن يرغمك أحد على السفر طبعا .. ولكن عاطف بيه يظن أنك لابد وأن ترى تحققه الأخير فى الجنة التى حلمتما بها سويا فى زمن الطفولة !

ذكرتنى .. وتذكرت .. وعرفت أننى سأسافر .

-١٣-

شروخ المرآة

لابد أن ذلك الشراب الذى قدموه إلى فى بداية الرحلة .. حين تحولت الشمس من أقصى اليسار إلى أدنى اليمين ، قد انسكبت فيه الآشعة ثم ذابت ثم اختفت ! وكان مذاقه غريبا لا يشبه شيئا مما شربت فى سالف أيامى .. فيه حلاوة الكرم الناضج قبل تخمره ممتزجا بمرارة معقولة وتنفذ منه رائحة الياسمين الدمشقى .. ولا أظن أننى تجرعت القدح كله ، فبعد الرشفة الثانية سقطت فى بئر تتخللها ظلمة كثيفة وتملؤها مياه راكدة سوداء، غصت فيها فتخللت مسامى وأثقلت تقلبى فى المضجع !

ولم أستيقظ فى مقعد الطائرة الذى نمت فيه .. ولا فى السيارة التى نقلونى إليها .. ولم أرى طريقا نقطعه وكان خروجى من بئر الزئبق مصحوبا بمخاض عسير .. فحين فتحت عينى لم أر إلا دوائر بيضاء تتقاطع وتنفصل وتتلاشى فى الفراغ القاتم . وآلمنى رأسى لدرجة أجبرتنى على إغلاق عينى مرة أخرى ، وأحسست ساعتها فقط أننى أرقد على فراش وثير كلما تثاقل عليه جسدى احتضنه بليونة .. وسبحت أصابعى على ملمس الديباج والمخمل .. فانتابنى فضول لكى أرى .. فتحت عينى وكانت الدوائر قد تلاشت ، واستطعت أن أميز ضوء الشفق يدخل محمرا من تلك النافذة الفرنسية الطويلة التى فتح مصراعيها فكشفا عن سماء قريبة يتخللها فرع أرزة قريبة هكذا كانت اللوحة .. توحى بالاطمئنان وتشيع فى الأرجاء دفئا

غير معلوم المصدر ..

لم أدر من أين انبعث الهاتف ، ذلك الصوت الذى خاطبنى مصدرا أمرا .. أن أنهض فقد طال سباتك ، وقلت لنفسى هو هاتف من عقلى الباطن - لكنى أطعته ! .. ودرت بعينى أتعرف على المكان (أهو فندق آخر أنزلنى فيه عاطف درويش ؟) .. لفت نظرى ذلك الباب المفتوح على الشرفة تتطاير فوقه تلك الغلالات الرقيقة الشفافة .. كأنها تدعونى للاقتراب فاقتربت .

والشرفة عريضة تدور حول بناية يحتضنها جبل .. والبناية بين القصر والفيلا .. ولابد أن أكون خارجها حتى أستطيع أن أراها ثم أصفها .. تحت الشرفة حديقة وارفة تتقاطر على أشجارها أسراب الطيور العائدة فى المساء .. ومع أهزوجة العودة التى تملأ الآفاق .. كان هناك صوت وحيد لكلب ينبح فى فناء قريب وعدت إلى الحجرة أبحث عن ذلك الحبل الحريرى المعقود فوق ظهر الفراش .. وجربت تصورى فى أنه جرس كلاسيكى لاستدعاء خدم المكان .. شددت الحبل ولم يخب تصورى .. فقد سمعت بعد دقيقة من يفتح الباب ويسأل بلهجة «شامية» عن طلبات «البك» ! ..

إذن فهو فندق حقا ؟!

كلا يا سيدى .. هو ليس فندقا .. إنه نزل .. والفارق كبير .. حجراته محدودة وزبائنه لا يتغيرون !

- ولكنى لم آت إلى هنا قبل الآن !

- تكرم سيدى ! أنت «ضيفه» وهذا يكفى !

- خبرنى عن اسم المكان .. واسم هذا النزل واسم مضيفى!

نطقت الدهشة فى عينيه بتعبير خاطف عن الاستهجان ولكنه أجاب كأى خادم يلتزم بتحقيق رغبة «النزيل» .

- أنت فى ضيعة على مسافة أربعة أميال من «صوفر» .. وهذا «نزل فخر الدين الكبير» .. ومضيفك هو سيد هذه الضيعة .. عاطف بك درويش !

– أهو هنا الآن ؟

– هو فى دارته القريبة يا سيدى وقد أخبرنا أنه سيرسل فى طلبك عندما يحل المساء .. والآن إذا بتريد .. مائدة غدائك تنتظرك فى الحديقة !

– نبهتنى عبارته إلى تقلصات الجوع التى تعربد فى أمعائى .. وسرت معه إلى الشرفة ومنها نزلنا درجات سلم حجرى انتهى بنا إلى حديقة غمرها الغسق قبل ما حولها بتأثير مظلة طبيعية بسطتها فوقها أفرع متقابلة ومتشابكة لأشجار عملاقة تجاور ذلك الفوار (شلال صغير) تنحدر مياهه من بطن صخور الجبل وتنزل فى جدول عريض تجرى مياهه إلى حيث لا أرى بينما وضعت تحت مسقط الفوار صينية كبيرة كصوانى العشاء فى منازلنا قديما مليئة بالفواكه الصيفية الطازجة .. وكانت هناك مائدة وحيدة على ضفة الجدول تدلى فوقها قنديل يشرق بضوء نهارى وبسرعة توضع أطباق الطعام «عشرات من أطباق المقبلات عرف بها المطبخ اللبنانى» .

نعم أنا فى لبنان ! وفى ضيافة النسخة اللبنانية من صاحب طفولتى القديم .. وقد اختفت هالة لتجىء «هيفاء .. تضع أمامى الأكل .. فى رقة مدربة وتهمس بين الفينة والفنية وكلما سألتها أو طلبت منها أمرا «تقبرنى» .. غادة فارعة كانت .. وكانت باهرة الحسن ، منحوتة بأزميل سحرى يحفر فى المرمر بعذوبة اللمس فبدت كأنها تحقق بصرى «لعشتار» آلهة الفينيقيين ! وحرصت على ألا أستسلم للآمال المزروعة فى حنايا اللاشعور ورددت لنفسى : ما هى ألا «هالة» أخرى تنحصر مهمتها فى رعاية أمرك حتى يشير «عاطف درويش» بالتوقف !

طلبت منها أن تسمعنى على المسجل الذى تنبعث منه تلك الموسيقى شريطا أو اسطوانة لفيروز ..

ابتسمت وهمست : سأغنى لك أنا !

غنت لفيروز فكانت هى .. وأغمضت عينى حتى لا يصرفنى جمالها عن

صوتها ..

يا شقيق الروح من جسدى ..

إن كان ذنبى أن حبك سيدى .. فكل ليالى العاشقين ذنوبى ..

أتوب إلى ربى وإنى لمرة - يسامحنى ربى - إليك أتوب ..

وتخطو الخطوات على درب مزهر تبلله دموع الحنين وأخطو .. أريدها ترافق خطوى .

ولكنها تعتذر وتبتعد .. أنا غير مأذونة .. سامحنى .. فلو تخطيت حدودى لاحترقت ..

فى كلامها عن سيد الضيعة كان الاحترام .. حبا معصورا بالرهبة ! قالت إنه سيد المكان وصاحب الزمان الذى رأت أول ما رأت .. عينيه الباكيتين حزنا على .. يارا .

ويارا لوحة معلقة على الجدار .. وتمثال مرمى على ضفة البحيرة .. نفس البحيرة التى قفزت إليها فجأة فى ذلك المساء الملعون حين تشاجر معها عاطف وأهانها معلنا لها أنه فرغ منها وعليها أن ترحل ..

«الجنون كلمة يا صديقى .. كلمة لا أكثر .. تنطقها كذبا فتدمر عالمك بأكمله ! لم أحب سواها .. ولن أجد فى قلبى نأمة ميل لغيرها ..

لماذا أتيت بى إلى هنا يا عاطف ؟

إنها أشواقك القديمة يا صديقى ! هل نسيت جنونك بهاتين الروايتين اللتين قرأناهما فى بكورة صبانا ؟

نداء المجهول لمحمود تيمور .. وغادة «حمانا» لطاهر لاشين ؟ ربما تنسى أنت ! لكن عاطف درويش لا ينسى !

وهل اشتريت هذه الضيعة وبنيت القصر والنزل من أجل أن تحقق لى أمنية الطفولة ؟

- إذا امتلكت الأسباب .. لم لا تفعل !

- ولكن .. ألم تقل لى إن هذا هو تحققك الجديد ؟

- نعم أو مازلت أقول إن تحققك يتجدد كلما فعلت ما تريد !

تبادلنا نظرة طويلة .. وكانت كافية .. قرأ كل منا ما فى ذهن صاحبه وطالع سريرته ! ربما كان نوعا من «التيلباثى» تخاطرنا فيه لوهلة ! .. لم تنطق شفانا .. سألنى فى الخاطرة : أتريد أن تبقى معى هنا؟

وأجبته فى نفس الخاطرة أن نعم ! .. فلنتقاسم تحققك ليكون لكلينا !

ترى .. هل أغضبته ؟ .. لعل هذا ما حدث .. فقد نمت ليلتها فى نزل فخر الدين وحين استيقظت كانت الشمس قد استدارت من أذنى اليمين إلى أقصى اليسار .. ولم يكن هناك بالطائرة سواى .

وأتتنى المضيفة بأوراق كى أوقعها ومعها جواز سفرى .

وبدأت فى نقل البيانات المطلوبة ..

«رباه ! .. هذه هى صورتى .. ولكن .. أهذا هو اسمى ؟

عاطف عبد الخالق درويش ..

كيف فعلها ؟ .. كيف طمس اسمى الحقيقى حتى من ذاكرتى ومن أوراقى الرسمية كلها حتى أصبحت هكذا .. رجلا بلا اسم .. بلا هوية .. بلا وطن ..

لكنى لن أستسلم .. سأهتف محذرا الجميع .. وسأعلن لهم الحقيقة ! وستساعدنى هذه الآنية المعدنية التى أدق بها الآن على قضبان العنبر .. سأصم آذانهم حتى يسمعوا .

أحـــــدث إصـــــدارات روايات الـهــــلال

العدد	اسم الرواية	المؤلف	التاريخ	الثمن بالجنيه
٦٨٨	أبناء الديمقراطية	ياسر شعبان	ابريل ٢٠٠٦	٥,٠٠
٦٨٩	مجموعة شهادات ووثائق لخدمة تاريخ زماننا	صلاح عيسى	مايو ٢٠٠٦	٧,٠٠
٦٩٠	الحب فى زمن العولمة	صبحى فحماوى	يونيه ٢٠٠٦	٧,٠٠
٦٩١	عطر البرتقال الأخضر	شريف حتاتة	يوليو ٢٠٠٦	٥,٠٠
٦٩٢	أنا الذى رأى	محمود سعيد	أغسطس٢٠٠٦	٧,٠٠
٦٩٣	الجميلة حتماً توافق	رأفت الميهى	سبتمبر ٢٠٠٦	٥,٠٠
٦٩٤	نعناع الجناين	خيرى شلبى	أكتوبر ٢٠٠٦	٦,٠٠
٦٩٥	واحة الغروب	بهاء طاهر	نوفمبر ٢٠٠٦	٧,٠٠
٦٩٦	شهرزاد على بحيرة جنيف	جميل عطية إبراهيم	ديسمبر ٢٠٠٦	٧,٠٠
٦٩٧	مأوى الروح	محمد عبدالسلام العمرى	يناير ٢٠٠٧	٧,٠٠
٦٩٨	٦١ شارع زين الدين	سعيد نوح	فبراير ٢٠٠٧	٧,٠٠
٦٩٩	نبيذ أحمر	أمينة زيدان	مارس ٢٠٠٧	٧,٠٠



رحلة الراهب سيمون إلى مصر والشام



ترجمة: **د. محمد حرب**

يصدر: ٥ مايو ٢٠٠٧م

رئيس مجلس الإدارة
عبد القادر شهيب

رئيس التحرير
مجدى الدقاق

هذه الرواية

كانت «الرواية» بالنسبة لى ، دائما، فنى المفضل الذى أوثره وأنحاز إليه وأعتبره بحر التجربة الإنسانية الذى لا تحده شواطىء.. وقد ألقيت بنفسى فى لجته منذ طفولتى قارئا نهما وعبر سنوات يفاعتى كاتبا.. «يحاول» .. وإلى الآن يواصل المحاولة.. وبين صفحات الروايات «الجواهر» التى أبدعتها قرائح العباقرة العظام.. دسيتوفسكى وديكنز وهاردى وبلزاك وهوجو وتولستوى وهيمنجواى وثربانتس وملفيل ومورافيا وميللر وجويس وماركيز ومحفوظ .. وعشرات آخرين.. غصت فى سطورهم المسحورة ولم أخرج!

.. «وجنة مجنون» هى محاولة لاقتفاء أثر الحلم الذى يخطر فى تهويمات الدغل الموحش المتشابك والشائك الذى تخلقه الكوابيس، والمخاوف والشكوك ونسميه.. النفس البشرية.

وهى من جانب آخر تجربة سيطرت على تفكيرى فى إلحاح فرض علىّ أن أخوضها .. معتذرا بأن الفن والأدب بالذات والرواية على الأخص، هو تجربة مستمرة لا تكفى ولا تكتفى ! وهى تجربة أطرحها على قارئها مستأذنا فى وقت أرجو أن يستغرقه بأقل قدر من الشعور بالملل!

يسعدنى بشكل خاص ان تصدر «جنة مجنون» عن سلسلة روايات الهلال لأن هناك علاقة عاطفية قديمة تربطنى بهذه السلسلة التى أمتعتنى فى سنوات البكور وكانت جزءا من الروافد التى تعددت لتصب فى مجرى تأسيس وإعداد الكاتب الذى صرته.. وكيف يمكننى أن أنسى أول ترجمات عربية لأمهات الرواية فى الشرق والغرب؟.

وإنه لما يشرفنى حقا أن أجد لنفسى توقيعا فى سجل تشريفات أشهر سلسلة روايات عربية، ولعلها لا تكون زيارة يتيمة لصرح شامخ أفخر بأن أكون فى صف زواره!

«أسامة أنور عكاشة»

القاهرة - أبريل - ٢٠٠٧

عن المؤلف

أسامة أنور عكاشة:

- من مواليد طنطا وموطن الأسرة مدينة كفر الشيخ.
- حصل على ليسانس الآداب قسم الدراسات النفسية والاجتماعية من جامعة عين شمس ١٩٦٢.
- حصل على مجموعة من جوائز وألقاب التكريم، أهمها جائزة الدولة للتفوق فى الفنون عام ٢٠٠٢.

مؤلفاته

- أحلام فى برج بابل – رواية ١٩٨٤
- منخفض الهند الموسمى – رواية ٢٠٠٣
- وهج الصيف – رواية ٢٠٠٤
- تلك الأيام – رواية ٢٠٠٥
- خارج الدنيا .. مجموعة قصصية ١٩٦٧
- مقاطع من أغنية قديمة مجموعة قصصية ١٩٨٨
- أوراق مسافر – نثر فنى –١٩٩٦
- همس البحر – نثر فنى – ١٩٩٧
- تباريح خريف – نثر فنى – ١٩٩٨
- على الجسر – مقالات وحكايات – ٢٠٠٥

☐ الاسكندرانى – سيناريو تليفزيونى – ١٩٩٣

- عشر حلقات من كتاب الحلمية – سيناريو وحوار – ١٩٩٣



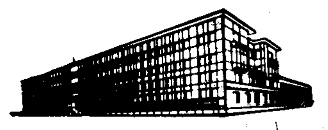
- للمؤلف فى الدراما التليفزيونية أكثر من خمسة وأربعين عملا دراميا أهمها:
- المشربية ، وقال البحر ، أبواب المدينة، الشهد والدموع، رحلة السيد أبو العلا البشرى – الراية البيضا ، عصفور النار ، الحب وأشياء أخرى ، ضمير أبلة حكمت ، ليالى الحلمية – أرابيسك – زيزينيا – امرأة من زمن الحب – وآخر ما كتب للتليفزيون الجزء الأول من خماسية «المصراوية».

كتب للمسرح:

الناس اللى فى الثالث – عز الضهر – ليلة أربعتاشر.

وكتب افلام: كتيبة الإعدام – تحت الصفر – الهجامة – دماء على الأسفلت – الطعم والسنارة.

بطاقة فهرسة
الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
عكاشة، أسامة أنور
جنة مجنون ، أسامة أنور عكاشة
ط ١ ، القاهرة، دار الهلال ، ٢٠٠٧
١١٠ ص ، ٢١سم - (روايات الهلال)
تدمك ١٢٤٦٩ - ٠٧ - ٩٧٧
١- القصص العربية
٢ - القصص العاطفية ٨١٣
أ - العنوان
رقم إيداع ٧٩٥٧ - ٢٠٠٧



الطباعة : مؤسسة دار الهلال ـ القاهرة



طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة - المطابع : ٨ ، ١٠ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية - منافذ البيع : ١٠ ، ١٦ ش كامل صدقى الفجالة - ٤ شارع الإسحاقى بمنشية البكرى روكسى مصر الجديدة - القاهرة : ٦٨٢٢٧٩٢ - ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧ ، فاكس : ٢٥٩٦٦٥٠ - ٦٨٢٧٠٠٢ / ٢٠٢ ج.م.ع ٤ش بدوى محرم بك - الإسكندرية .